رواية

# رصاص حول الحقيقة

رواية واقعية عن حرب أكتوبر ١٩٧٣

تأليف

الدكتور/ إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
عضو اتحاد الكتاب
رئيس تحرير مجلة مجلتنا للأطفال والشباب

العنوان: وزارة الإعلام – الهيئة العامة للاستعلامات
شارع الإستاد البحري – مدينة نصر– مكتب بريد البانوراما الرقم البريدي ١١٨١١– القاهرة.
المنزل : ٣ شارع غراب / قويسنا ٣٢٦٣١/ منوفية
تليفون: ٠٤٨/٢٥٧٣٨٢٦ منزل
تليفون: ٠٢/٢٦١٠٧٤٠ مكتب
فاكس : ٠٢/٢٦٠٥٧٩٩ –٠٢/٢٦٠٥٦٥٢
موبايل ٠١٢/١٤٤٦٩٠٠

رواية

# رصاص حول الحقيقة

رواية

# رصاص حول الحقيقة

# رواية واقعية

- وقعت أحداثها في الفترة من ٦ من أكتوبر عام ١٩٧٣ إلى ٢٢ من فبراير عام ١٩٧٤.
- بعض الأشخاص بأسمائهم الحقيقية والبعض الآخر رمز لأسمائهم لاعتبارات عائلية.

# إهـــداء

- "إلى تلك الروح المصرية الوطنية الغالية التي حلقت إلـــى الخلود من أجل أن نعيش"
- "إلى هؤلاء الذين افتدونا بأنفسهم وبأجزاء من أجسادهم"
- "إلى روح أخي عبد الكافي المصاب في حـــرب أكتـــوبر ١٩٧٣م ، والذي توفيَّ بعد ثلاثين عامـــاً مـــن الحـــرب ومـــن إصابته في تلك الحرب المقدسة الغالية ، التي أعادت للإنـــسان العربي كرامته!!!

د. إسماعيل

# الفصل الأول

يا سينا افرحـــــــــــــــي يا ســـــينا
جينا لك بالشـــوق جينـــــــــــــــــــــــــــا
بأرواحنا وبالعـــــزم وبالإصـــــــــــــرار
بنينا جســـــور وعدينــــــــــــــــــــــــــا
يا سينا افرحي يا سينا
سنين وأيام بنتوحــــــــــــــــــــــــــد
ونتجمع عشــــان نرجــــــــــــــــــــــــع
وبالطيارة وبالدبابــــــــة والمدفـــــــــع
رفعــــــنا علمـــــنا فوق أرضينــــــــــــــا
يا سينا افرحي يا سينا
رايـــــات النصــــــــــــر بترفـــــرف
وعاليـــــه وعاليـــــه بتهــفهـــــــــــــــف
وســـجل يا تاريـــــخ وأوصـــــــــــف
وقول للدنيــــــا عدينــــــــــــــــــــــــــا
يا سينا افرحي يا سينا

ردد عم "حمدي " الأب لثلاثة أشقاء وبنت واحدة عمرها لا يتجاوز السادسة عشر" هذه الكلمات التي أرسلها له ولده الأصغر من الأرض الطيبـــة التـــي تـــم تحريرها بعرق أبنائه وزملائه وجنود مصر الشرفاء من أرض ســـيناء الحبيبـــة،

والتي أرسلها له ولده (أحمد) أصغر الأبناء الثلاثة الذين دفع بهم حمدي إلى الميدان ليجاهدوا وليقاتلوا في سبيل الله لإعادة الحق والأرض والكرامة...

كان هذا هو الخطاب الأول الذي تلقاه من أحد منهم منذ يوم سفرهم إلى الميدان ويوم أن قالوا لوالدهم وهم يودعونه:

ــ نحن لن نألو جهدًا بحياتنا ودمائنا في سبيل استعادة كرامتنا وحريتنا . إن الشرف والحرية والكرامة مرتبطة بتحرير كل شبر من سيناء ، من الجولان، من غزة والضفة الغربية والقدس العربية ، ثق يا والدنا وتأكد أننا سنحقق النصر بمشيئة الله.

تذكر هذه الكلمات وهو ما زال ممسكًا بكلتا يديه خطاب أصغر أبنائه عمرًا وهو "أحمد" هذا الخطاب الذي يقول له فيه : " لم نفعل سوى ما طلبته منا يا والدي العزيز، حررنا سيناء بعد ندائها الحار لنا ، العزيز علينا .. بعد ما يقرب من ستة أعوام طوال وبضعة أشهر ، قضينا هذه الأيام بعزم وإيمان ، هكذا عبرنا وانتصرنا بفضل الله وبفضل دعواتك يا والدي وتشجيعك لنا ، وبفضل تضامن مصر لدحر العدوان .. اطمئن يا والدي أنت وشقيقتي ، التي لها مني ألف مليون قبلة ، على حالي وحال أشقائي وبإذن الله سأكتب لك خطابي القادم من العريش".

وصاح الوالد حمدي فرحًا شاكرًا:

ــ الحمد لله يا رب .. الحمد والشكر لك ، لقد وهبتني أبناءً أبرارً لهم السعادة في الدنيا والخلود في الآخرة ، الحمد لله أنك رزقتني إياهم في مصر لنشهد النصر قد تحقق على أيديهم وعلى أيدي زملائهم أبناء مصر ، نحن نطلب ونبتهل إليك يا الله إكمال النصر وعودة المقدسات.

وبدأت تجاعيد وجهه المتهلل في الاختفاء تدريجيًا ، بعد الفرح الذي سُعِدَ به في العاشرة صباحًا حتى كاد ــ من كثرة الفرح والسرور ــ أن يصبح شابًا.

وحمدي الأب قد جاوز الخامسة والستين من عمره ، ومع ذلك فهو بالغ النشاط والحيوية ، لم تستطع تجاعيد وجهه أن تخفي لمسة الجمال والحُسن

والنشاط البادية عليه ، يجلس أغلب نهاره بجوار الراديو ليستمع إلـى نـشرات الأخبار والموسيقى الخفيفة في حجرة المكتبة المنزلية ـ التي تذخر بالآلاف مـن كتب التراث الفرعوني والتراث الإسلامي والفلسفة وعلـم الـنفس حتـى كتـب الجغرافيا والسياسة والآثار والقانون تجدها بأعداد وفيرة في هذه المكتبة ـ التي ورث بعضها عن والده –رحمه الله– الذي كان يعمل أستاذًا في الجامعة ، ولكـن الأغلبية العظمى من هذه الكتب قام بجمعها بنفسه خلال هـذه الرحلـة العظيمـة والطويلة في حياته ، جمعها من مصروفه المدرسي عندما كان يـرفض شـراء الحلوى القذرة المحفوفة بالمخاطر من الباعة الجائلين أمـام مدرسـته ويـذهب ليشترى ما يعجبه من الكتب ، ثم واصل جمعها في حياته العمليـة منـذ تعيينـه مدرسًا حتى سُوِّيَتْ حالته ، وأصبح مدير لمصلحة الآثار إلـى أن أقعدتـه نوبـة المرض التي هاجمته في سن الثالثة والخمسين ، ولكنه استرد صحته بعد النوبة بعامين ، فرفض العودة لعمله واكتفي بمعاشه الشهري حتى يتم عمليـة تربيـة وتنشئة أبنائه تنشئة سليمة ، وليهتم بهم الاهتمام الكافي ، وأيضاً حتـى يتفـرغ لمكتبته ولكتبه ولأبحاثه التي ما زال يُعدُها ويرسلها إلى مصلحة الآثار والتي لـم تستطع أن تغفل كثيرًا من اقتراحاته العلمية ، والتي بُنِيَّتْ على أسـاس واضـح وثابت علمياً وعملياً لأنها نتيجة بحث علمي مدروس من الأب حمدي.

وهو أيضًا يمارس نشاطات الشباب الرياضية الجسمانية ، حتى يـستطيع أن يقف بقدميه ثابتًا في وجه الحياة ـ التي تطرد الخامل دائمًا منها ـ ولذلك فهـو دائم النشاط والحيوية .

والأب حمدي كانت زوجته قد توفيت في أوج شبابها ، بعد أن كانـت ملكـة على عرشها ، توفيت بعد أن أنجبت "هانم" التي يوم ما أن ظهرت للحياة اختفـت والدتها منها ، ولذلك قرر "حمدي" تسمية هذه الصغيرة باسم حبيبتـه وزوجتـه ووالدتها "هانم" تخليدًا لذكرها.

لقد تزوج هو "هانم" بعد أن كاد أن يفوته قطار الزواج ،ولكنـه اسـتطاع أن يلحقه، فاختارها واختارته ، حتى عاشا معاً ما يقرب من عشرة أعوام في منتهى

السعادة ، لا يثير كِبَرَ عُمره أشجانها ولا يقلل ذلك من مقدار حُبْهَا له أو حُبه لها ، فكانوا أسعد زوجين .

وهكذا حاول "حمدي" أن يُعيد الروح الجميلة لزوجته في روح جمال فتاته الصغيرة ، بعد أن كاد يفقد صوابه من كثرة الحزن على زوجته لأنهما قد اتفقا على أن يكون المولود القادم هو آخر نسلهم حتى يعيشوا جميعًا في رخاء ورفاهية وسعادة ... ولكن! إنه القدر دائمًا !!! ، فيوم أن يُسْعَد بأول ابنة له يحزن من أجل رحيل زوجته عنه !!!.

هكذا كانت حياته ، ولعل هذا هو ما يجعله دائمًا يفقد أعصابه ويصاب بين الحين والآخر بنوبات مرضية عصبية !!.

نظر إلى الخطاب مرة ثانية وثالثة ودلائل الشباب تتسابق إلى وجهه لتحتله وتطرد تجاعيد عمر الخامسة والستين من ورائها قوية باهرة... واطمأن من هذا الخطاب ليس فقط على "أحمد" ولكن على "عمر" و "عصام" ...

ونادى بصوت ساحر الأنغام يسحر الألباب من صوته العذب المملوء بالسعادة والهناء :

- يا حبيبتي يا "هانم".. احضري فورًا.... بسرعة من فضلك!" ...

وجاء من أعماق المنزل الجميل الذي يقع في أطراف مدينة "طوخ" في مواجهة أبدع المخلوقات : النباتات الخضراء ، والتي بها مساحات شاسعة من الأرض حول هذا المنزل الفسيح ــ الذي يبعد عن المدينة بحوالي نصف كيلو متر ــ جاءه صوت نجلته "هانم" واضحًا رنانًا ..

- حالاً يا والدي... سأحضر فورًا!

وما هي إلا لحظات أو تكاد .. " وقد استولى الفضاء الشاسع من خلال نافذة حجرة مكتبه على لُبْهِ " .. أقبلت الابنة " هانم " في ثوب منزلي رخيص زاهي اللون، وقد وقعت طلعتها على قلبه موقعًا حسنًا ، فتذكر بسرعة الطيف محاسن وجمال "هانم" الزوجة و"هانم" الابنة !! .. تشابه تام في كل شيء ، حتى في البساطة والأناقة ... في العذوبة والحب والوفاء...

وبسرعة أيضًا .. تذكر الشَعْر الذهبي .. أو بالأحرى النصف ذهبي ـ كما كان يُحِبُ أن يقول ـ وقد اختفي تحت طيات الإشارب ، الذي طالما منعه من الاستمتاع برؤية شعر زوجته النصف ذهبي وشعر نجلته الأكثر اصفراراً وذهبيةً ...

وتذكر أيضًا الابتسامة المعلقة على شفتي ابنته ، مثل والدتها تماماً ، والتي تزيد من جمالها أضعافًا مضاعفة...

وتذكر أيضًا جمالهما الرقيق البسيط الرونق ، فتمنى لو يعيد الله له زوجته ـ ولو لدقائق معدودة ـ حتى يختبر نفسه في معرفة الزوجة من الابنة... وابتسم... هل حقًا سيعرف ذلك ؟ وهل سيقدر على التفرقة بين زوجته وابنته؟! .... وهل حقًا سيتمكن من ذلك أم سيستمع إلى رنين ضحكاتهما معلنة خطأه ؟؟!!

ولكن لم هذا التمني المستحيل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان ، وأيضًا فإن زوجته هي ابنته في الجمال وفي كل دقائقها .. وقدر الله وما شاء فعل .. واستقر على هذا الرأي .. فابتسم ثانية ونظر فوجد ابنته تقف أمامه وتقول:

- "نعم يا والدي.... أتريد شيئا الآن؟"

- نعم .. اجلسي.. أريد أن أُحدثك في موضوع ذات مغزى ومعنى .. ومتعلق بالأسرة والوطن...!!

- أجل يا والدي... هاأنذا بين يديك.

- لقد وصلتني رسالة الآن من شقيقك "أحمد" ، وهو بخير حال حتى ثالث أيام المعركة ، ويبعث لك ألف مليون قبلة ، ويُطَمْئِنُنَا على حالته خاصة ، وعلى أبطال مصر عامة... وها هو ذا الخطاب بين يديك..!

فأشرق وجه "هانم" بهالة من الأنوار الربانية ، وتلألأت عيناها من نور فرحتها الكبرى على شقيقها "أحمد" وعلى أبطالنا... والتهمت الخطاب التهامًا حتى كادت أن تغيب عن الحياة دقائق ، وأحست أن الأرض لا تتسع لفرحتها وسعادتها ولكن ربما اتسعت الدنيا كلها لسعادتها وهنائها...!!

وقَبَّلَتْ الخطاب عشرات من أَحَرِّ القبلات ، وضمته إلى صدرها ورفعت عيناها إلى السماء البادية من النافذة في الأفق البعيد فوق المساحات الخضراء ، وهي تناجي الله رب العالمين :

- "يا رب أنت ناصر عبادك المخلصين .. أيدنا بفضلك ونصرك ..واهدنا دائمًا إلى الصراط المستقيم .. اللهم احفظ عبادك أبطال الحق والإيمان .. وانصرهم على الكافرين الطغاة .. فأنت لنا نعم المولى... ونعم الوكيل...!"

ثم قالت لوالدها بصوت به كل العزم والقوة:

- إلى متى يا أبى سنظل نرقب أنباء الانتصار والحرب من بعيد... لماذا لا نشترك في الحرب والجهاد ضد الأعداء ؟! ، نعم ... لماذا لا نشترك في الحرب والنصر؟ .. إن النصر بالحرب ليست في ميدان القتال فقط .. إنما النصر في الحرب يأتي بترابط الجيش مع الشعب ، الجيش يناضل ويدافع عن الوطن بروحه ودمائه... والشعب يدافع عن الوطن بماله ودمائه!!!...

واستمرت الابنة "هانم" في حماسها وهي تقول :

- من هم الجنود والأبطال على خط النار؟ .. أليسوا أبناؤنا وأخوتنا وآباؤنا؟ أليسوا دمنا ولحمنا؟!.. إذن لا بد أن نعمل بكل الجهد حتى نوفر لهم طعامهم وشرابهم ومأواهم... نوفر لهم شربة الماء التي تساعدهم على التخلص من أعدائنا... قطرة الدم التي تساعد جرحاهم على مواصلة الحياة.. هذه القطرة البسيطة تكون طعنة في قلب الأعداء.

والتقطت أنفاسها ، وواصلت قولها :

- هيا يا أبى لنعمل ولنكد حتى نكون الأرض الصلبة التي يقف عليها اخوتي الثلاث وزملائهم الأبطال... هيا نعمل حتى يطمئن من هناك في سيناء والجولان أن ذويهم لن يرحلوا عن الدنيا بسبب الجوع ، هيا يا أبى لنعمل وليكن شعارنا "يد تبنى ... ويد تحمل السلاح" ...هيا بسرعة فإن كل دقيقة نتركها يذهب من أجلنا شهداء... تضيع قطرات دماء... هيا بسرعة حتى نسير إلى الأمام بالعزم والتضحية والإيمان...!!"

فرد الأب على هذا الكلام مندهشاً من حماس ابنته ، فقال باتزان شديد:

- من قال لك إننا نريد الكسل... إننا فداءً لمصر... ومصر هي نحن ونحن مصر!... إننا لا بد أن نعمل من الغد بإذن الله... إنني منذ لحظات كنت أفكر :ماذا نعمل؟ ... لقد مضى على المعركة خمسة أيام... ولا نريد أن يفوتنا أكثر من ذلك... أليس كذلك؟!!

- نعم يا أبى ... وسأتصل فجر الغد لأكون خادمة لكل المصابين في المستشفيات الحنان كما أعطوني الروح والأمل والمستقبل... سأفديهم بحياتي..!

- سأترك لك ما يناسبك .. أما أنا ... فهذا سر سيظل مكتومًا وسترين ماذا أفعل؟ .. ولكن أليس من حقي الآن أن أقول لك أنك لا بد وأن تكتبي ردًا على الخطاب الذي أرسله شقيقك ... اكتبي الرد ثم ضعيه في البريد حتى الصباح... ولكن لا تنسي إيقاظي صباحًا وفجرًا لكي أمارس بعض الأعمال قبل تأدية الواجب المقدس!

- سمعًا وطاعة يا والدي العزيز.

ثم قبلته وولت مدبرة... ذهبت إلى غرفتها لكي تكتب خطاباً إلى شقيقها ، ولتجلس لتفكر في الواجب الوطني الذي أُلقى على كاهلها ، وفور انتهائها من هذه الواجبات ، قامت لتعد الحقيبة الصغيرة إعلانًا لقرب الرحيل إلى القاهرة ،لتكون بجانب زملاء أشقائها الأبطال الذين لا يريدون سوى ابتسامة وحنانا يعطيهم الأمل في الخروج من إصاباتهم ليواصلوا دورهم البطولي !!

ولما تقدم المساء وبعده الليل قليلاً ، ذهبت "هانم" للاطمئنان على والدها ، قبل أن تذهب لفراشها لتسريح قليلاً ، وذلك قبل رحيلها في رحلة الواجب التي ستبدأها مع قدوم الفجر..!!

وجدت والدها ما يزال منكبًا ومنهمكًا في حجرته وأمامه وريقات يدون فيها، فتسللت إلى داخل الحجرة في عبث طفولي عجيب ، ولما قرأت بعض كلمات والدها التي دونها أصدرت ضحكة فجائية ، فنظر والدها إليها في غضب ويكاد الشرر يتطاير من عينيه وقال لها:

- ماذا تفعلين هنا ؟! تعساً لك!!؟

- أنا يا والدي! لقد أردت مداعبتك! وقرأت بعض ما تكتب عن الصهيونية..!! إنها كتابة لطيفة أليس لذلك...

فلم يتمالك الوالد نفسه في غمرة غضبه ، وصفع ابنته "هانم" صفعة قوية ، وقال لها بكل حدة :

- هذا سر خطير... إياك أن تتفوهي به... هيا إلى حجرتك!!

- أمرك يا والدي.

*** *** ***

# الفصل الثاني

دق عنيف على الباب الخارجي ، وعم "حمدي" قابع في حجرته ، مُنْكَبًا على مكتبه ، فما زال يعمل منهمكًا في عمل مهم...

وسمع الطرق العنيف فَدُهش ، لأن ابنته قد غادرت المنزل متجهة إلى القاهرة في هذا الصباح ، ولذا فإنه قام متثاقلاً وقال بصوت هادئ :

ــ من الطارق؟!

فقال صوت مرتفع جدًا من الخارج بلهجة حازمة :

ــ افتح الباب يا حمدي فورًا وإلا سنكسر الباب ... نحن البوليس!!!

وازدادت دهشته للغاية...فتساءل في نفسه :

ــ ماذا فعلت...؟!.. وماذا حدث؟

وبسرعة فتح الباب حتى لا يكسره البوليس ، فوجد أمامه ضابط شرطة برتبة "نقيب" وعدد من الجنود يقدر بسبعة أفراد ، فقال النقيب الذي يدعى "رفعت":

ــ سيادتك حمدي عز...؟

فقال عم حمدي بصوت متلجلج وهو أشبه بالأبكم:

ــ نعم .. أنا يا حضرة الضابط .. أنا حمدي عز!!

ــ معي أمر من النيابة بتفتيش منزلك واستدعاءك للنيابة العسكرية!

ــ لماذا؟ .. وما السبب يا حضرة الضابط؟

ــ حالاً ستعرف في النيابة العسكرية...!

وأصدر النقيب "رفعت" أمره إلى الجنود والصف بتفتيش المنزل بدقة ، ووقف هو مع عم "حمدي" منتظراً نتيجة التفتيش...

وما هي إلا لحظات أو تكاد .. حتى صاح الرقيب "سليم" قائلاً:

ــ هذه هي المستندات المطلوبة... أوراقه من على مكتبه ، وهذه الكتب عن الصهيونية واليهود وكتب ومصادر أثرية... ها هي ذي يا حضرة الضابط؟

فدخل النقيب ومن وراءه عم "حمدي" ومعه جندي حرس ليشاهد المكتب الذي كان عم "حمدي" جالسًا يكتب فوقه منذ لحظات..!!

وأخذ النقيب بعض الأوراق وقلبها وقرأ بعضها بسرعة ، ثم صاح:

ــ صادروا هذه الوريقات وهذه الكتب... ثم تحفظوا على المنزل وليحرسه الرقيب "سليم" والعريف "سعيد"...

فصاح عم "حمدي" بذهول قائلاً:

- ما الحكاية يا حضرة الضابط ؟..إنني لا أفهم ما تفعلون!

فقال النقيب "رفعت" بهدوء شديد:

ــ هَيَّا بنا إلى مركز الشرطة بدون ضجيج وإلا سأستعمل القيود الحديدية ... ولكن لا داعي... الحكاية أن هناك بلاغ ضدك من المخابرات بتهمة التعاون مع العدو..!!

ــ أنا...!! أنا جاسوس... بعد كل هذا العمر الطويل...!!

ــ آسف.. هذه أوامر النيابة... هيا بنا بهدوء وبدون مقاومة !!!

وبكل هدوء وثقة ، سارع عم "حمدي" مع العائلة البوليسية برئاسة النقيب "رفعت" وعضوية خمسة من الجنود فقط ، بعد أن تخلف الرقيب "سليم" والعريف "سعيد" لحراسة المنزل ... وسار حمدي من دون أن ينبس بحرف ، ولكن كان عقله يذهب ويحضر ، ويتحرك من اليمين إلى الشمال ، وتذكر ابنته والتي تؤدى واجبها الوطني الآن ، وحاول تذكر أي جريمة ارتكبها وأي أعمال تجسس فعلها... ولكن عقله الباطن ينفي أي شئ ولا يدرى أأخطأوا في القبض عليه؟... أم أخطأ هو خطأً جسيمًا وهو لا يدرى؟! .. يمكن !!!...

لم يصدق أن تلتصق به تهمة عقوبتها الإعدام وهو بريء وهو لا يدرى ... ورَدَّدَ بداخله :

ــ أهذا معقول...؟ أهذا معقول وهو والد لثلاثة من الأبطال على خط النار؟! .. هل معقول أن يصبح جاسوسًا لقتل أبنائه الثلاثة؟! ، أن أية معلومات حتمًا سيستخدمها العدو ضد أولاده بدون رحمة؟! ، بل أنه ليس من

المعقول أن يعمل جاسوسًا للعدو وقد أفنى من العمر حوالي أربعين عامًا في خدمة الدولة ، بل وفي أي خدمة؟! ، إنها في مهنة صقل الإنسان وخلق الإنسان وعمل وتشكيل إنسان المستقبل للوطن... إنها مهنة العلم والإيمان... الصبر والمثابرة... التفاني والإخلاص... الصلاح والإصلاح... إنها أشرف مهنة وأرقى المهن بل وفاكهة المهن لمن يتذوقها... لمن يحبها في سبيل مستقبل وطنه وأهله وأولاده... إنها المهنة الإنسانية والعظيمة مهنة العلم... مهنة التدريس... فهل يعقل أن يصبح عميلاً وهو يُدَرِّس للأطفال والتلاميذ أن العدو غادر لا يرحم !!! ، وهل يُعقل أن يرضى بالعمل أربعين عامًا في خدمة الدولة في هذا المجال الحيوي ثم يخون الدولة بعد ذلك؟!... من أجل ماذا؟ : النقود... إنها متوافرة لديه بكثرة والحمد لله... إن الله سترها معه طول حياته ، فلقد تعلم ابناؤه وعملوا وهو يأخذ معاشًا ممتازًا..؟!!! ... أمن أجل مستقبله..؟! ، ولكن ما المستقبل بالنسبة لسن الخامسة والستين... ولماذا لم يقم بهذا العمل الخائن من قبل وهو في سن الشباب؟ ، إذن لماذا..؟ إنه من أجل...!!!...

وضحك ضحكة قوية بعد أن وصلت القافلة إلى مبنى نيابة طوخ ثم ضحك ثانية مجيبًا عن السؤال... إنه من أجل قتل أولاده الثلاثة ووحيدته !!.. لا شيء يمكن الجواب على السؤال إلا بهذا ... وبالطبع فهذه الإجابة مستحيلة..؟!!

وهو يخطو بخطواته داخل مبنى مركز الشرطة تذكر شيئًا مهمًا... إن الآثار المصرية خالدة شامخة تعلن دائمًا وفي إصرار دائم وأبدى أن مصر حرة... مصر دائمة .. مصر عامرة بالخير والحب والوفاء ، إن مصر هي الحضارة... وإنها هي الأصالة والخلود... ولقد كان يعمل في مصلحة الآثار مديرًا ، فلماذا ــ وهو حسب اتهامهم له بالعمالة ــ لم يعمل لحساب العدو بسهولة في أغلى شيء في مصر وهو تاريخها العظيم ؟! ، وماذا سيستفيدون – يقصد العدو – منه وهو الهرم الذي اقترب من فراش الموت؟!! إنهم

يصطادون الشباب المغامر دائمًا لأنه يسهل إغراؤه بالأموال... الشباب الطموح الذي لا يعرف إلا أنه في الدنيا... لا يعرف حق وطنه عليه وهؤلاء لا وجود لهم إلا النادر اليسير على أرضنا الطيبة... فلماذا يصرون على أنه عميل إذن؟ ، وابتسم ابتسامة عريضة ظن على أثرها ومن أجلها أنهم سيقولون له حالاً :

ـ آسفين يا أفندم... مداعبة فقط... غلطة في الإشارة يا أفندم!!..

وابتسم وقد جلس بكل شيماء وكِبَرْ ينظر إلى اللواء "طلعت" الذي دخل الحجرة ليبدأ التحقيق معه بنفسه...

فاللواء "طلعت" هو مدير أمن محافظة القليوبية ، وقد حضر بنفسه ليحقق ويتابع التحقيق في هذه القضية الخطيرة على أمن الدولة...

وأسرع عم "حمدي" فتكلم ليسبق الأسئلة ، وليعطى اللواء "طلعت" الفرصة لكي يعتذر له حسبما صور له تفكيره الباطن ، فقال :

ـ عمومًا لا داعي للأسف... هل في إمكاني العودة إلى المنزل؟

فنظر إليه اللواء "طلعت" مستعجبًا وقائلاً:

ـ ماذا تقصد يا أستاذ، حضرتك المتهم حمدي عز...!!

متهم !!!.... لقد وصل الأمر إلى الاتهام !!!... فعلاً إنني منهم ، وأقول له لا داعي للأسف...

ودارت أفكار عم "حمدي" بسرعة الطيف ، وفي حضور النقيب "رفعت" واللواء "طلعت" بدءوا التحقيق مع المتهم حمدي عز ، وكانت التهمة هي العمالة والتعاون مع العدو وفي زمن الحرب... وبدأ اللواء "طلعت":

ـ طبعًا الحكاية باختصار معروفة وواضحة كالشمس... وكل الدلائل والمعلومات والمراقبة الدقيقة لتحركاتك وكل أعمالك أكدت لنا أنك تلعب دورًا بالغًا في الخطورة لصالح عدوًا نحاربه هذه الأيام ولا تعرف...

فقاطعه عم "حمدي" بصوت كله انزعاج وغضب:

ـ ماذا تقصد ؟ ... من فضلك تكلم في الموضوع المهم!

ـ بكل تأكيد يا حمدي ... ما رأيك في الاتهام الموجه إليك وهـو التعـاون والاتصال بالعدو في زمن الحرب ؟!

فنظر عم "حمدي" إلى الأرض باحثًا عن شيء ... أي شيء يقولـه ، وقـد عقدت المفاجأة لسانه ، فلم يجد سوى حذائه المتواضع اللامع الـذي اشـتراه خصيصًا بسبعة جنيهات كاملة من هذا النوع الذي صنع لإغراء الشباب وهـو النوع اللامع دائمًا... الذي لا يحتاج إلى زيارة ماسح الأحذية أبدًا... نظر إلـى حذائه عله يتذكر أفكاره التي ذهبت ويعيدها ليستطيع أن يتحدث ... نظر فلـم يجد ما يقوله... ماذا يقول وهو منذ قليل كان يفكر ويعتقد أنهـم سـيعتذرون له .. أهذا معقول؟...

وحاول الكلام فلم تخرج كلماته ، فلما أحس بالحرج الشديد ، قال بصعوبة:

ـ إنني مجهد الآن... هل من راحة ولو قصيرة؟!

فرد اللواء "طلعت" وعلى شفتيه ابتسامة عبرت عن سعادته:

ـ حسنًا!! اعترف لنا كتابيًا الآن ثم استرح جيدًا بعد ذلك !!!

ـ أنا!! أنا!! ، أعترف بماذا؟ ، إنني مجهد ومتعب فقـط ، هـل تنتهـزون فرصة آلامي العنيفة وتجبروني على الاعتراف بشيء لم أفعله؟...

وهنا صمت الجميع للاتهام القاسي والحكم الناقد عليهم جميعًا. صمتوا حتى يتمكنوا من تجميع أفكارهم مرة أخرى بعد أن كانوا يتصورون أنهم على مقربة من الانتهاء العاجل من هذه القضية الكبيرة!!

وهنا .. تذكر أيضًا النقيب "رفعت" هذه القضية المشابهة في الوقائع فقـط ، والتي حدثت له منذ سنوات ، وهي التي أجلت ترقيته مرتين ، فلولاهـا لكـان الآن في رتبة المقدم...

تذكر هذه الجناية الذي كان مكلفًا بالتحقيق فيهـا ومـضمونها : أن سـيدة كانت متزوجة برجل قارب من الخامسة والخمسين وهى علـى قـدر جمالهـا وعزة نفسها كانت متعبة دائمًا في المستشفي وعند الأطباء... وغـار عليهـا زوجها بشدة من الأطباء ، حتى كاد أن يمنعها من الخروج كليًا من المنـزل ،

ولما كانت هي في الأصل امرأة عفيفة ، أصلها من هذه الفئــة التــي تتعامــل بالشرف فقط ، فقد حزنت جدًا لضياع ثقة زوجها فيها ، وحزنت حتــى كــادت تقدم على الانتحار... وفي هذه الأثناء أرسلت لها والدتها طعامًا من قــريتهم ، وعندما أكلت هي لم يحدث لها شيء بينما توفي الزوج على الفور... وعنــدما قام الأطباء بالكشف على الجثة كشفًا دقيقًا تبين لهم أنه مات نتيجة تأثير الــسُمَّ عليه... وفي نفس اليوم ماتت والدة زوجته، وهنا كانت أصابع البوليس تشير إلى زوجته الجميلة خصوصًا أنه قد قام بالتأمين على حياته لــصالحها وأَمَّــنَ على حياتها لصالحه... وكانت كل الدلائل تشير إليها... تريد أن تنعم بحياتها ، خصوصًا وهى جميلة وصغيرة حيث كان عمرها يتراوح بين السابعة والعشرين والثلاثين عامًا... وتريد أيضًا أن تستمتع بالنقود نتيجة لقيام زوجها بالتــأمين على حياته لصالحها.... وتذكر أيضًا ما فعله حينما بدأ التحقيق معها ، وسألها عن الاتهام الموجه ضدها ، فقالت له : إنها متعبة جدًا والآلام تسرى في بدنها ، وانتهز هو هذه الفرصة وكتب اعترافًا منها بالقتل في نهاية محضر التحقيــق ، ثم قال لها وقعي... فوقعت ، لتنصرف إلى آلامها... وتذكر أيضًا يوم الجلسة ، عندما سألها القاضي : "لماذا قتلتي زوجك"؟ ، فقالت له : "أنا لم أقتــل أحــدًا نهائيًا"؟! ، "وعندما سألها : ولماذا اعترفــتِ بقتلــه"؟! ، قالــت لــه : قــصة الاستغلال كاملة... فأمر القاضي بالتحقيق في هذه الواقعة ، ثم أعاد التحقيــق كاملاً في القضية وتبين براءتها نهائيًا من التهمة ، حيث ثبت أن الطعام الــذي حضر من البلد قد أكلته هي وزوجها ، ولما كــان زوجهــا مريــضًا بــالأملاح والسكر فقد أثر الطعام ، حيث كان بــه بعــض الكربونــات مــن الــصوديوم والبوتاسيوم ، فتفاعلت هذه المواد لتنتج مادة سامة لتقتله على الفور... ولمــا أراد الأطباء التأكد من الحالة ، قاموا بتشريح وفحص جثة والدتها ، فتبين أنها تناولت من نفس الطعام ، وحدثت لها نفس المضاعفات التــي حــدثت لــزوج ابنتها ، وهنا ثبت بالدليل المادي براءة الزوجة، وثبت إجبارها على الاعتراف تحت تأثير مرضها وآلامها ، وقرر القاضي ــ بعد موافقة مدير الأمن ــ عــزل

الضابط لسوء سلوكه ، ثم رأفة به وبمستقبله ، تم حرمانه من الترقيــة لمــدة خمس سنوات. هنا تذكر النقيب "رفعت" هذه الواقعة المشابهة وخاف أن يحدث مثل ما حدث فيعزل نهائيًا، فقام وفي عينيه كل الإصرار:

ـ هيا يا أستاذ إلى الحجرة لتستريح هناك ، ثــم نواصــل التحقيــق بعــد استراحتك التي أتمنى أن تكون قصيرة... هيا معي!

فقال اللواء "طلعت" له بسرعة:

ـ لماذا يا نقيب "رفعت"؟ أتركه حتى ننتهي من التحقيق!!

ـ ماذا؟ لا .. لا يا سيادة اللواء.. لا بد أن يأخذ راحتــه أولاً ثــم نواصــل التحقيق معه.

ـ لا .. لا... الوقت يمضى وأنا لست على استعداد لهذا الجهــد الكبيــر ، وأيضًا لست مستعدًا للحضور هنا عدة أيام... أنت تعــرف مــسئولياتي أيهــا الضابط ..!!

ـ يا سيادة اللواء .. لا بد من العدالة في التحقيق ، لأنه تحقيــق ولــيس إجباراً على الاعتراف!! ، لا بد أن نضع في اعتبارنا دائمًــا أن الــشرطة فــي خدمة الشعب!!

ـ هل تعطيني درسًا في الأخلاق يا أيها الضابط ؟!... إذن ضعه في الحجز وتعال لنتفاهم!!

ـ سمعًا وطاعة يا سيادة اللواء مدير الأمن...

واتجه الضابط على الفور ومعه "حمدي" إلى الخارج ، حيث بــاب الحجــز وسلَّمه إلى الشرطي ، وبعد أن اطمأن إلى ذلك ، أسرع راجعًا إلــى حجرتــه ، حيث تأكد أنه ستدور مواجهة عنيفة بينه وبين اللواء "طلعت"...

وتكلم اللواء "طلعت" بابتسامة ساخرة :

ـ ماذا يعنى ما قلته أيها الضابط ؟! .. أتريد أن نجهد أنفــسنا وراء هــذا العميل؟!

ـ لا يا حضرة اللواء... أتتذكر حادثة المرأة التي انتزعت منها الاعتراف ، ثم قُدِمْتَ أنا إلى المحاكمة بدلاً منها... لا أريد أن يكون ملفي أكثر سوءًا من هذا!!

ـ حكايتك أيها الضابط كانت جناية قتل متهم ضد القانون، جريمة قتل عادية ، إنما هذه جريمة ضد الوطن... الاعتراف هناك لن يفيد ولن يضر سوى المتهمة... إنما هنا الاعتراف سيهم الجميع ، وسيساهم في النصر العظيم ... يهم الوطن كله... هل نسيت سيادتك أنها جريمة جاسوسية...!!

ـ إنها فعلاً كذلك! ولكن لم يثبت هذا الاتهام بعد! ، ممكن أن يكون المتهم بريئًا ، خصوصًا أنه جاءنا الأمر بمراقبته فقط من المخابرات المصرية... وعمومًا التحقيق العادل خير ضمان له ولنا ثم لمصر...

ـ عمومًا أيها الضابط أعتقد أننا لن نتقدم كثيرًا في هذا التحقيق...

ثم أمسك اللواء "طلعت" بقلمه وكتب في محضر التحقيق هذه الكلمات:

ـ "يحول المتهم للتحقيق معه تفصيلاً إلى النيابة العسكرية تمهيدًا لمحاكمته عسكريًا.. ومعه كل أوراق وأدلة اتهامه..

# الفصل الثالث

كانت مستشفي الحلمية العسكري تعج بالمئات من الزوار ، من أولئك المواطنين الذين أصيب أحد أبنائهم أو أخواتهم في معركة العبور، تلك الأسر والعائلات الصامدة التي لم تذرف دمعة حزن واحدة على من بترت ساقه أو وضعت في الجبس حتى تلتحم مع بقية جسده ، وذلك من أثر رصاصة طائشة من العدو الخائف الجبان .. أو أسر هؤلاء الذين افتدوا مصر بنور أعينهم وأمل حياتهم .. هؤلاء فضَّلوا ــ عن يقين وعزم وإصرار... وعن وعى وفداء ــ فضَّلوا أن ترى مصر النور دائمًا وعاشوا هم في ظلام ، وهذا الظلام ليس دائمًا ، ولكنه ظلام العين والنظر فقط ، وإنما كان كل من القلب والروح ينظر بشدة وفرح إلى نصر مصر وإلى عزة وكرامة مصر ــ العائدة إلينا ــ بعد أن قدم هو وزملاؤه جميعًا دماءهم حرة ذكية لهذا الواجب العظيم...

فئات عديدة وكبيرة من المصابين وذويهم وحديث الأمل والعمل... حديث من القلب إلى القلب... حديث يشفي جروح ويشفي غليل صدور... وصدور من؟! ... صدور هؤلاء المواطنين الذين كانوا يتمنون أن يشاهدوا إسرائيليًا وهم يقطعونه إربًا... إربًا... فإذ بأبنائهم يحيلون حلمهم إلى حقيقة ، ويقطعون الأعداء ليس بوحشية ، وإنما برد العدوان واستعادة الأرض والمقدسات... قليل جدًا من هؤلاء شُفِيَّت صدورهم لانتقامهم انتقامًا عنيفًا ، والأغلبية الساحقة من هؤلاء الأبطال الجرحى هم الذين يشتاقون ليوم العودة إلى القتال ليثأروا لدمائهم الذكية التي سالت على الأرض الطيبة والمقدسة... أرض سيناء الحبيبة...

وقت الزيارة بالذات في المستشفي وقت يخلوا من الآلام... آلام الجرح... تجلس في هذا الوقت العائلات على الأسِرَّة ، حول الأبطال الجرحى... يتكلمون في كل شيء : في الحرب وفي المستقبل وفي المنزل والأولاد والشارع

والسوق... إنها جلسة مصرية أصلية ، تشبه دائمًا جلسات "المصاطب" في القرى. ففي كل بيت من أية قرية نجد أمامه "مصطبة" يتجمع حولها العديد من الرجال ويجلسون يتحدثون ويمرحون ويشربون "الجوزة" والشاي ، كما يتجمع العديد من الشباب يتناقشون في أُمورهم، في مرحهم، وفي كل شيء. وأيضًا قد تتجمع النساء اثنتان أو ثلاثة... وأمام كل بيت تقريبًا لابد أن تنعقد هذه المجالس...!!!

جلسة الأسرة حول سرير المريض تذكر أي إنسان بهذه الجلسات القروية المصرية اللطيفة... ومع أنها قد تكون من الوجهة الطبية غير مفيدة للمريض وليست مع صحته لأنها تطول بالساعات ، فإنها مفيدة له بالتأكيد من الناحية الروحية والنفسية والمعنوية ، لأنها تشعره بالتكاتف العائلي والتآزر الإنساني وراء جنود وأبطال مصر... تشعره أن الناس لن ينسوه وهو مصاب مثلما هو ضَّحَى من أجل أن يظلوا على قدم الوثاق مع الحياة.

وبعد الظهر من اليوم الذي خرجت فيه ابنة عم "حمدي" ، ذهبت متطوعة إلى إدارة الخدمات الطبية بالقوات المسلحة ، وملأت الاستمارات الخاصة بالتطوع ، ثم أعطوها خطابًا إلى مستشفي الحلمية العسكري لتعمل هناك ، ووصلت بعد الظهر وقابلت مدير المستشفي الذي أمرها بالبدء في العمل فورًا...

ووزعتها رئيسة الحكيمات بالمستشفي على عنبر رقم ٣ ، ودخلت العنبر وهى مليئة بالخوف والشعور بالرهبة ، ولكنها كانت مؤمنة بأنها لابد أن تعمل ليل نهار حتى تعوض ما فاتها من أيام ظلت خلالها لا تمارس واجبها الوطني... نعم لا بد أن تنتقم... تعمل وتعمل حتى تصل إلى مثل ما فعله السابقون.. دخلت ورأت هذه الجموع الكثيرة من الزوار... شعرت كأن دموعها تريد السقوط على هؤلاء الأبطال الذين بترت سيقانهم وأيديهم وذهبت أبصارهم... هناك أيضًا من فقد جلده أو أظافره .. مناظر لم تألفها مصر من قبل ولكنها ألفتها اليوم نظير استعادة الكرامة... نظير النصر... نظير رفع راية مصر وتحرير الأرض.. بدلاً من أن تسقط الدموع من عينيها تكلفت ابتسامة واضحة وهى تردد :

ــ إن كل إصابة في جسد المقاتل البطل هي وسام شجاعته وبطولته !!..

واقتنعت بهذا الرأي الرشيد ، ودخلت على النقيب الضابطة "عواطف" رئيسة العنبر وهى طبيبة برتبة النقيب وقالت لها:

ــ أنا هانم حمدي عز.. ممرضة متطوعة في العنبر.

ــ تشرفنا يا آنسة...

ثم قالت موجهة كلامها لممرضة قريبة منها:

ــ يا آنسة ابتسام... يمكنك الآن أن تأخذي قسطًا من الراحة... أنت تعملين منذ يومين متواصلين...

ــ ولكن هل أترككم وأنا أعرف أن هناك نقص في عدد الممرضات ؟!!

ــ لقد وصلت ممرضة الآن... الآنسة هانم...

ــ أهلاً يا هانم...

.. قالت لها وهى تمد يدها لتصافحها

ــ أهلاً يا ابتسام.

ثم قالت النقيب "عواطف" لــ هانم:

ــ دبلوم تمريض..

ــ نعم يا أفندم.

ــ يمكنك البدء في العمل من الآن..

توجهت هانم على الفور من الكشك الخاص بالممرضات في باب العنبر إلى العنبر، فوجدته واسعًا شاسعًا يملئه الضوء لكثرة نوافذه... به حوالي سبعون سريرًا أغلبها للطوارئ ، له بلكونة واسعة وملحق به مطبخ صغير ودورة مياه نظيفة جدًا.. الإضاءة جيدة جدًا والمراوح الكهربائية تجعل جو العنبر رطب جدًا ، والأحاديث للمرضى مع ذويهم بها سرور واضح جدًا... والقلة ليس عندهم زائرين...

ومع كثرة الزوار وجدت هانم الأَسِرْة نظيفة جدًا والأرضية لم تملؤها الفضلات ، لأن كل جريح كان حريصًا على نظافة مكانه... ووجدت بجانب كل

جريح دولاب صغير عليه راديو ، ويوجد في وسط العنبر تمامًا منضدة وعليها باقة من الزهور... وفي العنبر تليفزيون وتنتشر أيضًا سيدات الهلال الأحمر بين المرضى وذويهم وتجلس لتحل مشاكلهم المختلفة...

هذه هي الصورة التي رأتها هانم باختصار في اللحظة الأولى التي بدأت عملها فيها كممرضة وخادمة للأبطال...

ونظرت "هانم" إلى يسارها ، فوجدت بطلاً جريحًا يتألم ويتألم بصوت خافت ، فذهبت إليه لتسأله: ماذا به؟ ، وماذا يريد؟ ، ولتواسيه :

ــ ما اسمك يا بطل..؟ وبماذا تشكوا؟

ــ سيادتك ممرضة جديدة... أين الطبيب؟ ... أريده حالاً!!

ــ حاضر... سأذهب وأحضره فورًا.

وما هي إلا لحظات أو تكاد مرت على ذهابها لإحضار الطبيب... وجاءت بالطبيب وهو برتبة رائد ، فسأله الطبيب :

ــ هل تشكو من شيء؟! وما هو؟

ــ الجرح يؤلمني بشدة يا دكتور! وكذلك أتنفس بصعوبة جدًا!

ــ حاضر يا سماح... سأفعل اللازم... اطمئن...

ونظر إلى هانم وقال لها :

ــ أغلي الحقنة... أعطه قرص نوفالجين..

وفعلت هانم ما أمرت به... وأعطاه الطبيب الحقنة المهدئة... ثم بعد مغادرة الطبيب له شاهدته وهو يبتسم ، فذهبت له وقالت:

ــ اسمك سماح... صحيح ؟

ــ نعم .. كيف عرفت ذلك؟ .. أظن من الدكتور..

ــ بكل تأكيد... ولكن هل أعرف كيف أصبت... وماذا فعلت أيام المعركة يا بطل؟

ــ أنا مستعد لأقص عليك ولكن بعد أن أعرف مَنْ سيادتك؟!!

ـ أنا اسمي هانم حمدي عز... من طوخ قليوبية... والدي بالمعاش وكان مديرًا بمصلحة الآثار... وأنا خريجة مدرسة التمريض المتوسطة..

ـ تشرفنا يا آنسة هانم... أقول لك أنني كنت مجندًا بالقوات المسلحة في مدينة السويس... وفي سلاح الوقود... وفي الساعات الأولى من الحرب كان علينا أن نجهز أنفسنا لتحريك بعض خزانات الوقود ، لتموين السيارات والمدرعات في الضفة الشرقية ، وكانت هذه المهمة صعبة للغاية ، فالوقود سهل الاشتعال وبأقل احتكاك ، وفي حوالي منتصف الليل قمنا بتنفيذ العملية على أكمل وجه... وفي صباح اليوم التالي ، حاول العدو قصف القوات التي تمركزت في حصونه ، التي حررناها ، وكنا عائدين إلى السويس في مهمة أخرى ، ولما أصيبت العربة نزلنا وإذا بطلقة "فيكارز" تنطلق كالسهم من رد الفعل إلى صدري ، لتخترق الجانب الأيمن وتخرج من ظهري وتتلف رئتي اليمنى ، ولم أحس بأي شيء إلا وأنا على هذا السرير... والفيكارز هذا هو طلقة خارقة حارقة... شديدة.. هذه هي حكايتي بكل بساطة..

ـ بطولة كبيرة يا أخ سماح... والحمد لله أنا أرى أن حالتك ممتازة...

وسمعت أنينًا مرتفعًا من أحد الأبطال بالقرب منها ، فلما قامت لترى ماذا يريد هذا البطل ، رأت ممرضة أخرى تسعى إليه فلما اقتربت ، قالت لها:

ـ سيادتك مدموذيل هانم... أهلاً وسهلاً حضرة النقيب "عواطف" أخبرتني...

ـ أهلاً بك... لماذا يئن هذا البطل؟

ـ أنه دائم الألم من بطن رجله ، لأنه مصاب في الشريان ودائم النزيف ، وبالطبع دائم الألم... ممكن تنادى النقيب "عواطف"... إنها دكتورة العنبر لتعطيه ما يساعده على تحمل الألم..

وذهبت هانم وجاءت بالنقيب "عواطف" وفعلت اللازم له ، ثم أحضرت للمريض نصف لتر "جلوكوز" لتعويض الدم الذي يفقده باستمرار ، ولتغذية جسمه الذي لا يريد أن يأكل أبدًا... وانصرفت "عواطف" بعد أن تركت الممرضتين مع المريض ، وقالت هانم للممرضة الأخرى:

ـ لم أتعرف على اسم سيادتك؟!

ـ أنا "هدية" آنسة هدية..

ـ عاشت الأسماء يا مدموذيل هدية... سأعطى للمريض "الجلوكوز" وسأظل أراقبه... وأعدت الحامل ثم أخذت في رفق وحنان ذراع الجريح البطل ، ووضعت إبرة الجلوكوز ، وجلست تواسيه وتسأله علها تشفي بعض آلامه :

ـ ما اسمك يا بطل...؟

ـ اسمي عبد المنعم... من الشرقية... وطبعًا سيادتك تريدي معرفة حكايتي ، أنا كنت مع مجموعة من الزملاء نقوم بحراسة كوبري للعبور في منطقة البلاح .. حاولت الطائرات ضرب الكوبري المتحرك في أول ليلة... ليلة سبعة أكتوبر الماضية ، ولكن ربنا ستر والحمد لله... الحمد لله كانت القنابل تطيش وتنزل في القناة ، الذي قاس المر من قنابل العدو... آه... آه... ذكرى جميلة ، عندما كان الفجر وكل القنابل تطيش ، ثم جاءت طائرة وحاولت إسقاط حمولتها على الكوبري ، تمام وبالطبع الكوبرى كان متحركًا ، فتحرَّك يمينًا متفاديًا الحمولة... فلم يستطع قائد الطائرة إصابة هدفه وكان مندهشاً ـ لأنه كما قال لنا بعد أسره "عارف إن المصريين لا يعرفوا أي شيء ولا يمكن يفكروا في الحرب بطريقة علمية" ـ وبالفعل نزل بالمظلة تاركًا طائرته تهوى وتتحطم واستسلم على الفور... وبعد دقائق كنت مصابًا لا أدرى وقائع الإصابة بالضبط... ثم حضرت إلى هنا بعد يوم في مستشفي الإسماعيلية وساعات في مستشفي الزقازيق... الحقيقة أنا تعبان جدًا..! ، والحقيقة إن السلام لا بد أن يسيطر على وطننا... إنني شهدت حرب اليمن وحرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣... السلام أحسن والشباب يعيشوا وينتجوا... ولكن ماذا نفعل لزعماء إسرائيل المتغطرسين ، بالطبع سنذيقهم عذاب شديد... وبعد ذلك يرفرف السلام مرة أخرى على مصر...

ـ ربنا يتم شفاؤك يا أخ عبد المنعم وتعود للميدان قريبًا..

ــ بعد إذن سيادتك... من جهتي أنا حاربت كثير جدًا وكرهت الحرب والدماء ، ولكن إذا لم يخرج اليهود بكون حرامًا عليَّ وعلى كل مصري أن ينام في منزلــه ، لا بــد أن نُطَهِــرَ الأرض والكرامة ثم ننام مطمئنين بعد ذلك!!!

ــ ربنا يشفيك ويعطيك صحة ممتازة أنت وزملائك جميعًا..

وإنتهت حقنة "الجلوكوز" ونزعت هانم الحقنة من ذراعه برفق ، ثم قال لها :

ــ لو سمحتي سيادتك ، ممكن تقشري لي برتقالة؟؟..

فقالت له :

ــ بكل سرور ..

وبالفعل قامت بما طلبه منه ، وقدمت له البرتقالة ، وطلبت منه أن يأكلها بالهناء والشفاء ، وعلى وجهها ابتسامة تكفي لفتح الشهية لمن يراها ...

وبعد أن تناول عبد المنعم البرتقالة شكرها ، ثم قال لها:

ــ لا أدرى إنني اطمأننت لك كثيرًا... ولأول مرة منذ إصابتي أضــع طعامًــا فــي فمي... كنت أحس أن الطعام ليس له طعم في فمي ، أمــا الآن فإنــه أصــبح حلــو المذاق... ولكن ما اسم سيادتك؟

ــ أنا هانم حمدي عز... من طوخ..

ــ أرجو أن تُغَيِّرِي لي على الجرح ، لأنني أحس أنه لم يعد ينزف بعد!

ــ بكل سرور وبالشفاء القريب إن شاء الله ، وربنا يكمل شفاءك وتعود للميدان بسرعة يا بطل ...

ومدت يدها وأخذت تعقم الجرح ، وتزيل ما عليه من إفرازات ، ثم ربطته بشاش نظيف آخر ، ثم طمأنته ، فقال لها:

ــ هل أنت جديدة في المستشفي؟...

ــ نعم يا بطل ... لقد جئت اليوم متطوعة حتى أقف بجانب الأبطال... بجانبكم ، ولكــن كم عدد الممرضات في هذا العنبر الكبير؟

ــ حوالي خمسة أو ستة... ويتغيرون أحيانًا كل ست ساعات...

وهنا سمعت ضجة واضحة وشاهدت النقيب "عواطف" تنادى:

ــ يا آنسة هدية... يا سميحة... يا هانم... أحضروا بسرعة ، دفعــة أبطــال جرحــى جاءت الآن من الإسماعيلية!

*** *** ***

# الفصل الرابع

قام النقيب "رفعت" بعمل الإجراءات الرسمية لترحيل المتهم "حمدي عز" إلى النيابة العسكرية في القاهرة ، ولكنه عزم على ترحيله بواسطة عربة خاصة ولم يوافق على ترحيله إلى القاهرة بواسطة القطار... واستدعى النقيب "رفعت" المتهم "حمدي" ليرى مدى استعداده للتحقيق في القاهرة ، وبدأ الحديث:

ــ ممكن نتكلم بصراحة يا أستاذ حمدي... أنا أريد أن أعرف منك لماذا لم تنف اتهامك بالتعامل مع العدو؟!

ــ الحكاية واضحة يا حضرة الضابط... أنا أب لثلاثة أولاد في القوات المسلحة ، فكيف بعد هذا العمر الطويل ــ الذي أديت فيه خدمات جليلة للدولة ــ أن أتعامل مع إسرائيل؟ .. وأتساءل هل لأقتل أولادي الثلاثة؟ .. لا أدرى! بل ولا أعرف على أي أساس بُنِيَّ هذا الاتهام الفظيع ؟

ــ هذا ليس تحقيق رسمي يا أستاذ .. إنما هو لقاء صداقة قبل رحيلنا إلى القاهرة... وعمومًا فالاتهام ــ على ما أظن ــ قد بُنِيَّ على أساس أنك رجل آثار وتحتفظ بكتب كثيرة وكثيرة جدًا عن تاريخ الصهيونية ، ثم عُزلتك في الفيلا وسط الحقول وبعيدًا عن الناس ، مما يدل على أنك تريد العمل وسط الهدوء... وأخيرًا كلماتك وأبحاثك التي تحفظنا عليها وقت مهاجمة منزلك صباح اليوم.

ــ الآن اطمأن قلبي... إن الاتهام كله مبنى على أسس خاطئة ، فَحُبِي للهدوء وراء بنائي في وسط الحقول ، لأنه المكان الوحيد للهروب من ضجيج المدينة ، وأعتقد أن هذا من حقي الطبيعي... أما كتب الصهيونية فهي للثقافة ولمعرفة أصل الصهيونية ، وذلك للأبحاث التي أعدها ، وقد رأيت هذا البحث الذي كنت أعده من خلال ما كتبه الكُتَّاب الصهيونيين أنفسهم ، والذي أثْبَّتُ فيه بما لا يدع مجالاً للشك أن فلسطين كانت منذ الأزل عربية وأن وجود اليهود فيها

كان في لحظات عابرة ، وأيضًا كان اليهود يهربون من جحيم أوروبا ويعـودون إلى فلسطين تحت الحكم العربي الإسلامي آمنين بظله... هـل هـذه هـي أدلـة الخيانة يا حضرة الضابط !!

ــ عمومًا كلام جميل ، وعند التحقيق في النيابة العسكرية سـتأمر بـالإفراج عنك فورًا يا أستاذ حمدي... عمومًا أرجو ألا تثير متاعبنا أثناء السفر للقاهرة ، وذلك ضمانًا لحُسن المعاملة وسينعكس سلوكك أثناء الترحيل على حُـسن سـير التحقيق معك...

ثم جاء شُرطي ليبلغ النقيب "رفعت" أن اللواء "طلعت" وصل ، فقابله النقيـب "رفعت" ببشاشة وترحاب شديدين ، وعاد المتهم إلى الحجز ، وجلس النقيب مـع اللواء يتحدثان عن آخر إجراءات الترحيل حتى ينتهيا من هذا الموضوع المثير للقلاقل والشبهات ، فقال اللواء:

ــ لا بد أن تسافر أنت يا رفعت مع المتهم ضمانًا لسلامة وصوله ،حتى نُخْلِى مسئوليتنا من هذه الجريمة غير العادية..

ــ فعلاً يا حضرة اللواء أنا كنت أفكر في هذا منذ قليل.. هذا فضلاً عن أنني سأُنْهِى الموضوع بسرعة وخلال دقائق فلا تثير الإجراءات العسكرية متاعبنا..

ــ هذا كنت ما أتمناه وربنا يوفقك... ولكن متى ستغادرون للرحيل؟!

ــ الساعة الآن الرابعة والنصف... هل توافق سيادتك على الانتظـار حتـى الصباح ، لأن الليل غير مضمون العواقب!!

ــ لماذا ؟! .. الليل هادئ وجميل ، حتى أنه يهدئ الأعصاب ، وبهذا نـضمن عدم محاولة المتهم للهرب... فضلاً عن أن التحقيق في النيابة العـسكرية لا بـد أن يبدأ غدًا ضمانًا للعدالة وبالأخص للمتهم... فضلاً عن أننا نريد الترحيل بدون ضجيج وتحت ستار الظلام...!!

ــ إن شاء الله... سأسافر بالمتهم الساعة الخامسة والنصف حتى ننهى هـذا الموضوع ، ونعود في الصباح إن شاء الله... ولكن ما رأي سيادتكم فـي القـوة التي ستحرس المتهم!!

ـ أعتقد أن تقديرك وتقديري لن يزد عن اثنين أو ثلاثة لأن المتهم رجل مُسِنْ ولن يفكر في الهرب والشغب معكم!

ـ إذن ستكون الحراسة من اثنين... وأحسن إخلاصا هما الرقيب "سليم" والعريف "سعيد" ، وسأستبدل بدلاً منهما اثنين آخرين لحراسة المنزل الموضوع تحت المراقبة حتى تحضر لجنة التحقيق للمعاينة على الطبيعة...

ـ توصلوا بالسلامة ، وأرجو أن تُبْلِغني فور حضورك بما حدث..

ـ إن شاء الله يا أفندم!

وفور خروج اللواء "طلعت" من القسم أصدر النقيب أوامره بعودة الرقيب "سليم" والعريف "سعيد" من الحراسة وتوكيلها إلى شُرطيين آخرين... ثم جلس النقيب يفكر في السفر... هل يركبون عربة جيب مكشوفة أم لا ؟ .. عربة مكشوفة لأننا في أكتوبر والجو حار عمومًا ، وأيضًا حتى يرى المتهم سرعة العربة وفي الموت المنتظر إذا أقدم على الهروب فلا يفكر في ذلك ، وأيضًا ضمانًا لعدم تلاعب المتهم بالحارسين والبطش بهما... وفكر أيضًا في مزايا العربة المغطاة ، ألا يجوز أن يخون المتهم أحد الحارسين في العربة المكشوفة ويقذف به وتحدث فضيحة بوليسية؟! ... ألا يجوز أن ينتهز المتهم فرصة هدوء سرعة السيارة في المنحنيات ويقفز محاولاً الهروب؟! .. وأخيرًا ألا يجوز أن يكون للمتهم أعوان عندما يرونه يحاولون الإفراج عنه بالقوة ؟! ، ربما ... ربما ... وفكر طويلاً واهتدى أخيرًا إلى الحل... لا بد أن يؤجر تاكسي لينقلهم إلى القاهرة... فعلاً أنه الحل الوحيد... يجلس هو بجانب السائق ويكون في المقعد الخلفي المتهم وبجانبه الحارسان... حل ظريف جدًا ...

وأصدر النقيب رفعت أوامره بسرعة إحضار سيارة أجرة من الموقف الخاص بالسيارات ، ولكن سرعان ما ألغى هذه الأوامر ، ونزل هو إلى الموقف حيث أحضر تاكسي لائقًا وسريعًا ، حتى يكون في مأمن من العطل الفجائي في السيارات الأخرى واختار أيضًا اللون الأخضر لأنه اللون الوحيد الذي يتفاعل به جيدًا فالخضرة لون النباتات وهى أبدع المخلوقات...

ووصل التاكسي إلى القسم ، وحضر المتهم والرقيب "سليم" والعريف "سـعيد" ، وركبوا جميعًا كل منهم في مكانه ... وبعد لحظات وفي تمام الخامسة والنصف أصدر النقيب "رفعت" بوصفه القائد الأمر بالانطلاق بالترحيل إلى القاهرة..

وتهادت السيارة في سيرها وكل منها يفكر ويفكر ، النقيب رفعت يدعوا بـأن يصل بالسلامة وأن تنتهي المأمورية الثقيلة بخير ، والرقيب والعريف يفكران في الطريق ومتاعبه وفي الوصول للغاية حتى تنتفي مسئوليتهم ، أما المتهم حمـدي عز فهو يفكر في سرعة الوصول وانتهاء التحقيق والعودة بسرعة للمنزل حتـى لا يشعر به أحد..

انطلقت السيارة في سباق مع الوقت ، ولكن هيهات لها هيهات فإن الوقـت لا.. لا يسبقه إنسان! ، هو الذي ينتظر الجميع بعد توديع الآخـرين ، ومـسيرة الحياة لا تتوقف والسيارة سائرة... إلى القاهرة طريقها وإلى السلامة والوصول إلى النيابة العسكرية مقصدها وبُغيتها .

والهدوء الراكد يملأ جوف السيارة ، فلا أحد يتحدث ، ولا أحد ينطق حرفـاً ، ولكنها سائرة... سائرة .. ولكن! سرعتها تلاشت تـدريجيًا... لمـاذا؟! .. أنـه القطار... لقد تعطل قطار في الطريق في منتصف المسافة ما بين قهـا وطـوخ ، والركاب نزلوا وكل منهم لديه بصيص من أمل في مواصلة الطريق إلى مقـصده في موعده...

هَدَّأَتْ السيارة من سرعتها ، حتى تتفادى كـسرات الطـوب والـزلط ، بـل وأعواد الذرة المترامية والمتقاذفة هنا وهناك ، في محاولة لكل آمـل أن يحقـق أمله ويلحق ببيته أو عمله .. وفجأة... أطبقت فرامل الـسيارة علـى عجلاتهـا وتوقفت عن السير بعد ما أصيبت السيارة من قطعة حجرية في زجاجها الخلفي ، وتبادل ركابها النظرات حين فتح سائقها الباب ونزل حتى يرى جسامة الإصابة التي حلَّتْ بزجاج سيارته ، ويرد على المستهترين الوقاحة بالوقاحة ، ويا له من نزل فادح لسائق السيارة .. لا لشيء إلا لعدم توافر زجـاج الـسيارات ، حتـى بأعلى الأسعار!!!

وعاد السائق غاضباً ، وجهه أحمر من الغيظ والحنق ، كأنه معصوب العينين متبلد الوجنتين ، ولكنه لا يأسف ولا يحنق ولا يجنى غير ثمار الندم والشيطان..

ـ "حصل خير يا أُسطى... اتفضل سيجارة"..

قالها النقيب "رفعت" في هدوء وإن كان هدوءًا متصنعاً ، وإذا بالسائق يـزأر وكأن النقيب هو الذي أطاح بالزجاج :

ـ لا يوجد خير في الأرض ما دام فيها شياطين!!..

وتبسم الجميع لأول مرة منذ بداية الانطلاق برحلة السفر إلى القاهرة ، وقال عم "حمدي" بهدوء :

ـ عوضك على الله يا أسطى..

فزفر السائق زفرة طويلة ، مللاً من حديثهم ، واستأنف السير بسرعة كبيرة ، وطار لُب "حمدي" نحو أمله في الرجوع إلى منزله ، ليستقبل الأبطال الثلاثة عائدين وعلى رؤوسهم أعلام ورايات النصر ، وعلى جباههم الأوسمة والنياشين ، وينظر إليه الجميع ويقولون :

ـ حمدي أبو الأبطال... هذا هو أبو الأبطال!!..

وعند هذا الحد رجع عقله إليه ، وتذكر إلى أين هو ذاهب؟ ، فلربما يكون ذاهبًا إلى المقصلة!!

ـ أهذا معقول؟!... ولم لا!؟

وانطلق حمدي في ضحك هستيري، فضحك ضحكة طويلة ، فأسرع الجميع ينظرون إليه ويبحثون عن سبب الضحك الذي كساه ، وفي هذه اللحظات كان السائق أيضًا من بين الناظرين .. وعندئذ ـ والجميع يفكر في سبب هذه الضحكات ـ انطلقت صيحة من النقيب "رفعت":

ـ يا مجنون !!!..

وإذا بالعربة تتهاوى من فوق كوبري قها ، لتستقر بين شريطي السكة الحديد.

***　　***　　***

# الفصل الخامس

الهمة عالية والعرق يتصبب من جبين هذا وهذه ، والنشاط بـالغ ، والعمـل الرجولي مستمر بلا كلل أو تعب ، والجميع يشارك ويتمنى أن يظـل يـشارك ، وليس العمل بالهين ولا بالسهل .. ولكن ، الكل يبذل قصارى جهده ، فما قيمـة بذل الجهد مضاعفًا أمام جهد الرجال في خط النار... لا مقارنة بالنظر إلى العمل القيم لرجالنا...

هذا هو إحساس جميع من شارك في نقل المصابين إلى مستـشفي الحلميـة العسكري من رجال ونساء ... الكل يود لو كان له شرف الإصابة بدلاً من ذلـك البطل !! ، والجميع يود لو تذهب حياته بدلاً من دماء بل قطرة من دماء هـؤلاء الذين حرروا الأرض !!!، يالها من روح وطنية عالية غير مسبوقة علـى أرض مصر الغالية !!!..

والعمل دائب ، فلا رئيس ولا مرؤوس ، ومع ذلك يسير بسرعة وانتظـام... صورة تثبت أن الإنسان أكثر تنظيمًا بطبعه من باقي المخلوقات ، فهو قبـل كـل شيء : حيوان منظم ، لا يعمل خوفًا من السيف ، ولا خوفًا من الجزاءات ، ولا خوفًا من رئيسه ، ولكنه يعمل حتى يحافظ على نظـام الكـون ، وعلـى نظـام مجتمعه ، وعلى نظام أسرته وعلى نظامه هو نفسه!!.

إن الحشرات التي اشتهر صِيتُها بنظامها الفائق ، مثل النمل والنحل ، لا بـد أن تخضع لمرؤوس يقودها ويؤذيها إن أراد ، ولا يمكن أن تسير وتعمل لمجـرد السير أو العمل أو النظام ، بل تنظم وتعمل لخوفها من الرئيس ، فالنحـل مـثلاً وهو أبدع صورة تنظيمية في غير الإنسان له رئيس وهـى الملكـة ، والجميـع يعمل لخوفه من شعورها الغاضب تجاهه..

وحتى لم يتحقق "المركب التي بها مائة رئيس تغرق" ، فالكل رئـيس علـى نفسه وضميره ، والجميع يعمل هنا بلا رئيس ، ومع ذلك .. يمر الوقت والعمـل

صائب متواصل متقن ، لا مجال فيه للخلافات والاختلافات ولا للمناقشات والأوامر ، بل المجال كل المجال والجهد كل الجهد مُكرس لإنقاذ الأبطال !!...

ولذلك ما تكاد تسمع خفته صوتية ، حتى يعود الصمت ليطبق على المكان ، فلا تسمع إلا أنين لبطل جريح ، يهرع إليه الأطباء ليخففوا عنه ألمه.... ولا تكاد تسمع همسة من ممرضة وأخرى إلا وتنتهي فورًا بعبارة:

ــ على عنبر ١٢ أو ٣ أو قسم الغرغرينا أو عنبر العزل ... الخ.

وذلك طبقًا لحالات كل جريح على حدة ، فالتخصص الطبي يساعد على سرعة شفاء المريض ، مثل التخصص الفني الذي يساعد على سرعة إنهاء إنتاج الوحدة.

وفي حالة ما يتقرر نقل المريض المصاب البطل إلى أي عنبر أو قسم ، تهرع إليه بعض الممرضات ، ويحملنه على سيارة نقل يدوية مخصصة لنقل المرضى وبرفقته بعضهن ، حتى يصل إلى القسم ، ويبدأ فورًا العمل على إزالة أسباب شكواه وألمه من الأطباء والممرضات ، حتى يصبح قويًا كما كان ويعود إلى الميدان.

ووجدت "هانم" نفسها قرب نهاية استقبال الأبطال المصابين ، ما زالت تعمل للباقين بعض الإسعافات الأولية ، حتى يتم نقلهم للقسم الذي سيعالجون به ، ولم تحس بالتعب ولا بالإرهاق الذي أصبح باديًا على قسمات وجهها...

وانتهى نقل الجميع إلى أماكن علاجهم الدائمة حتى الشفاء ، ما عدا بطلاً واحدًا ، كان مشوهًا تمامًا ، لا تكاد تميز أو ترى أين تقع عينيه أو أنفه ، حتى أسنانه البيضاء اللامعة دنستها القنابل الكيماوية الحارقة ! ، التي أصر العدو الصهيوني على استعمالها رغم منعها دوليًا ، مثل النابالم ، ولكن ما العجب في هذا؟! ، وهم الذين دبروا المكايد لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في أيام النصر والهزيمة حتى طردهم وشردهم كما شاء الله تعالى.

وهذا البطل المشوه كان ينتظر نقله ، وعندما وجدت "هانم" عربة نقل مرضى خالية وضعته عليها ، واستأذنت من الطبيب في أن توصله حتى باب عنبر ١٢ ،

الذي تقرر علاجه فيه حتى يشفى ، وكان آنذاك البطل ما زال فاقد الوعي ، رغم المحاولات العديدة التي بذلها الأطباء له في كل مكان لإعادة وعيه إليه ، ولكن هيهات .. فقد كاد المريض أن يُنْهَش عقله ، فجعله دائم الغيبوبة...

ووصلت إلى باب عنبر ١٢ ، وهو عنبر خاص بالمحروقين من الأبطال الذين أُصيبوا بالحروق العنيفة والصعبة ، ولذا فإن لهم عناية خاصة ، وغير مسموح لأحد من الأهالي المدنيين بزيارة هذا العنبر ، حتى يتم الشفاء لمن فيه نظرًا للعناية الخاصة الفائقة التي يلقاها كل منهم حتى يخرج سالمًا من كل ألم.

وعند باب العنبر .. استقبل العقيد طبيب "محمد" البطل المصاب استقبال الأبطال ، واستقبل "هانم" بابتسامة عريضة ، ودعاها لمرافقة مريضها حتى سريره .. ودخلت هانم لأول مرة هذا العنبر ، فوجدت أغلب الأَسِرَّة مشغولة وكلهم من الأبطال العائدين بأوسمة النصر ، وهؤلاء الموجودين أمامها قد احترقوا عن آخرهم ، نظير ألا تصل شرارة واحدة لمصانع ومنازل مصر... لم تظهر أية دلالة على شخصية أي منهم ، كلهم في هذا العنبر سواسية .. رائحته ظاهرة بوضوح ، وهى في أنف "هانم" وكل من دخل العنبر (رائحة زكيه .. رائحة لم تنزل في الأسواق بعد .. أبعد أثرًا وأشد جاذبية من رائحة الريحان والياسمين وكل روائح الصناعة .. إنها رائحة العرق والكرامة .. كنا نسمع عنها قبل العاشر من رمضان ونشتهيها ولا نجدها ، حتى ظن الأعداء أننا بخلاء على أنفسنا منها ، نخاف أن ننفق ما لدينا حتى تعود إلينا ، بعد أن هربت من أراضينا !!) ...

وهذه الرائحة وقد اختلطت برائحة التعقيم الطبية والدواء ، قد صنعت عطرًا آخر رخيص إذا استنشقته مرة واحدة جئت إليه كل مرة تطلبه أنت لتشم رائحته ، هذا العطر وهو الثقة في النفس بعد الله والعمل الدائم حتى النجاح والأمل في الله وفي بلوغ الهدف وحده ... وعندما وصلت "هانم" بالبطل المشوه المحروق إلى سريره كانت قد تذكرت كلمات مصطفي كامل :

ــ "لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس"

نعم تذكرتها ، وطاب لها المقام في هذا العنبر العاطفي الهادئ الجميل ، ذو العطر العليل الجذاب ، فعندما أعطت المريض راحته غادرت الغرفة وقد قررت شيء في نفسها ومن قلبها وفي عقلها ألا وهو :

ــ الانتقال للعمل في عنبر ١٢ بدلاً من عنبر ٣.

وعادت "هانم" إلى عملها في عنبر ٣ وفي صدرها شيء من الراحة والانتعاش ، لم تعرف : كيف جاءت؟ ، ومن أين أتت؟! .. تسمرت قدماها عندما رأت النقيب "عواطف" تسقط من الإعياء والجهد القاتل ، فلقد استمرت تعمل وتعمل بلا كلل أو تعب حتى تعطى مثلما أعطى المصابون والجنود ، إنها تشعر حتى أنها إن أكثرت وزادت فلن تتساوى مع هؤلاء الأبطال!!.

وبُهِتَتْ "هانم" .. وندمت على عدم حضورها منذ وقت بعيد ، وبالذات منذ بدء المعارك ، حتى تتساوى مع أشقائها الأبطال ، إنها تعمل حتى لا يشعر أحد من أشقائها بشقاء لأنه هو الذي دفع ضريبة بذل الدم والروح من أجل الوطن..

ومارست عملها في عنبر ٣ لساعات طويلة شاقة ولكنها مرت كلحظات عليها... اطمأنت على كل الجُدد من الأبطال المصابين :

ــ فهذا "فرج" الذي انتشى فرحًا عندما أصاب بل دمر دبابتين ، وحضرت الثالثة ، فدمرها من وراء مكمن محكم ، فجاءت الطائرة الإسرائيلية ، ظنا منها أن هناك مجموعة تضرب من هنا ، وأسقطت قنبلة الألف رطل على حفرته القابع بها ، وإذا هو يجرى ويجرى ، وفي هذه اللحظات شاهد فرج بعض زملائه ، فرفع يديه حتى يشاهدوه ، وإذ بها تتطاير من جرَّاء الإصابة ، ومن شجاعته وحماسته ، انطلق إلى المستشفي الميداني ، ولم يدر شيئًا عن أصابته أكثر من هذا .. كيف ومن أين جاءت الرصاصة ؟ .. لا يدرى... ولكنه سعيد جدًا بهذا المجد لأنه سيستعيد ثقة والده في كفر الدوار ، لأنه وزملائه قد أثبتوا أنهم أبطال... وقال لها فرج أيضًا:

- "إنه سوف يرسل حالاً إلى والده بخبر إصابته حتى يفتخر به ويغفر له اعتقاداته القديمة".

ـ وشاهدت محمد عبد الستار ، ذلك البطل الذي يعتـز جـداً بمـدة خدمتـه الطويلة في القوات المسلحة منذ ١٩٦٧ ، إنه يفخر دائمًـا أيـضًا أنـه بـدون مؤهلات ، ومع ذلك تدرب على السلاح تـدريب الأبطـال ، واسـتعمله باقتـدار وانتصر على العدو... لقد بُتِرَتْ ساقه اليمنى أيضًا نتيجة انفجار لغم في اقتحـام القنطرة شرق ، ويا له من يوم ولت فيه أدبار الخيبة ، وحلـت محلهـا لمـسات الأمل.. لمسات العزة والرجاء...

ـ سمعت من "العبد" ، كما كانوا يسمونه في الوحدة العـسكرية ، أن عمـل الكباري تم في دقائق ، وإنه كجندي في سلاح المهندسين قام بحراسة الكباري ، وانتقل في اليوم التالي إلى الشرق ، حيث قام هو وزملاؤه بوضع ألغـام حـول المناطق المحررة ، كما قام بإبطال مفعول الألغام التي وضعها العدو بهدف عرقلة حركتنا .. إنه سعيد جدًا لأنه وجد أن قيادة مصر وشعبها قدرته كمـا قـدر هـو مصر تمامًا... أعطته العناية الطبية كاملة ، لذلك ظلت ساقه وذراعه سليمًا رغـم أنف الجميع بل ويضحك العبد قائلاً:

– المهم هو كيف تتمكن الممرضة من إعطائي حقن الجلوكوز؟! .. هذه هـي المشكلة التي أدت بالمستشفي الميداني لإرسالي إلى هنا ، إن جسدي الأسود لـم يعطِ فرصة لشريان أو وريد ليبرز...

ثم يتابع في خفة دم وثقة كبيرة في نفسه ومجتمعه :

– الأبطال من زملائي في الوحدة العسكرية ، وكل من يرانـي يظـن أننـي سوداني أو أفريقي أو نوبي .. أبدًا... إنني من القاهرة أبًا عن جـد ، بـل كـان جدي الأكبر ـ جد والدي ـ سودانيًا وهاجر إلى القاهرة ، ثم تجـنس بالجنـسية المصرية ، وهاأنذا أفخر بانتسابي لجيش مصر منتصرًا محررًا أرضنا الغالية.

وظلت "هانم" تتابع الحالات وتعمل بلا رحمة لنفسها ، لتعوض ذاتهـا عـذاب الأيام التي قضتها في لهو في منزلها دون أن تشارك فـي وقـف سـيل دمـاء المصابين.

وعادت النقيب "عواطف" بعد راحة ستة ساعات ، لا أكثر ، لتواصل عملها معهم، وفاجأتها "هانم" بطلب النقل لعنبر ١٢ ، فلما دُهشَت النقيب ، نظرًا لأن الكل يهرب من ذلك العنبر ، أخبرتها "هانم" بأنها شعرت براحة غريبة هناك ، ولهذا فهي تُصِر على العمل هناك .. وتم لها ما أرادت ، وتسلمت فورًا العمل هناك...

دخلتهانم عنبر ١٢ هادئة كهدوئه ، شامخة لشموخه ، أملها أن تجد كل هؤلاء المصابين معافين من الأمراض ، أقوياء البدن والعقل ، حتى يتموا مشوار النصر الذي تبتغيه وتستحقه مصر الظافرة... واتجهت فورًا إلى ذلك البطل الذي رافقته منذ ساعات ، وشعرت براحة غريبة وهى تذهب إليه ، وكان العنبر ساكنًا لم يسمع فيه همس أو أنين !!.

وجلست أمام هذا البطل تتأمله ، فلم تعرف من ملامحه شيئًا على الإطلاق ، فقط رأت فيه وجهًا مصريًا أصيلاً معتزًا بوطنيته ، يدل وجهه على أنه أصيب بالنابالم ، وهو يضحك ويضحك فقد كانت الابتسامة تعلو شفتيه بالرغم من أنه ما يزال في غيبوبة كاملة... قربت وجهها من وجهه فأحست براحة عجيبة أنفاسه ليست بغريبة عليها... لون شعره المحروق وهو لون شعرها... تقاسيم وجهه... مألوفة لديها... إنها تشعر بأنها تعرفه ... ولكن من يكون؟! ...

رجعت إلى صوابها بعد دقائق ، وقالت :

ـ إنها تعرفهم جميعًا... الجميع أخواتها في البطولة والعروبة والإسلام... كلهم نبتوا وترعرعوا على أرض مصر الطيبة...

فإحساسها بالقرب من ذلك البطل هو نفس إحساسها بقربها من أي فرد من هؤلاء الأبطال... أوهمت نفسها بذلك طاردة هواجسها تذهب حيث تشاء وتشتهى ، بعيدًا عن عقلها الباطن وقلبها الطاهر...

ومرت على الجميع تسدى لذلك خدمة ، ولهذا رباطًا وذلك ..الخ ، وعَمِلَت بهمة ونشاط ، ناسية أو متناسية أنها تعمل هنا منذ أكثر من ثلاثين ساعة متواصلة ، ومع ذلك تعمل بنفس الهمة التي تسلمت بها العمل...

جلست لتقارن بين هذا العنبر وعنبر ٣ ، فوجدت الفرق شاسعًا ، فالأخير يحتاج إلى تنظيف بعد الزيارة لا تقل عن ثلاث ساعات ، وهنا الجميع يتساوى في الشكل كلهم محروقون تمامًا ، ولا تعرف أي شخص ، ولذا فإن المريض هو الذي ينادى على هذا أو ذاك حتى يعرفه ، هناك لا توجد سوى رائحة الدواء والجروح ، وهنا توجد رائحة الحروق... هناك ضجيج دائم بين الأبطال بعضهم مع بعض وبين الأقارب والأبطال... أما في عنبر ١٢ فالجميع صامتون لا يجرؤ أحد منهم الهمس أو الحركة ، بعضهم ما زال في غيبوبة منذ يومين أو ثلاثة وتصل إلى خمسة أيام في غيبوبة كاملة... وكذلك فعنبر ٣ سيخرج أبطالاً بهم نفس وجوههم القديمة أما عنبر ١٢ فمن سيخرج منه لابد أن يكون خروجه بوجه جديد، بوجه أبيض ملائكي يميل إلى الحمرة ، مما يزيد من روعته ، وإجلالاً لما قدمه...

في عنبر ٣ أوسمة الشرف للأبطال تلك الأيدي والسيقان والعاهات ، سواء المبتورة منها أو المكسورة.. أما عنبر ١٢ فأوسمة شرفهم هي في لونهم الجديد الذي سيخرجون به إلى الحياة والممارسة مرة ثانية... وسام شرفه في هذه الحالة هو تغيير جلده الذي رأى ذل النكسة وعار الهزيمة إلى جلد جديد، جلد النصر والآمال والأمانى الحلوة الجميلة وعصر العبور والنصر..

فاقت "هانم" من تأملاتها على صوت يقول :

- أنا فين دلوقت... يا ناس ارحموني...

فذهبت من فورها لمصدر الصوت ، فوجدته البطل الأخير الذي حضر العنبر ، والذي كان في غيبوبة مستديمة.. فأجابته بصوت كله حنان ورقة :

ـ أنت هنا معنا يا بطل..

فتمتم قائلاً:

ـ هو فين بابا حمدي..

ـ حمدي!

لفظتها الممرضة "هانـــم" ، ولم تكد تـسمعهـا ، حتـى سـمعت مـدير المستشفي يقــول:

ــ يا آنسة "هانم" ... تسمحي بالحضور الفوري!!

ــ حاضر يا أفندم..

وذهبت من فورها لتراه ماذا يريد ، فقال لها:

- عليك بالرحيل فورًا إلى مستشفي الإسماعيلية الميـداني ، لقـد اخترتـك لكفاءتك وهم في حاجة إلى ممرضات فورًا..

ــ حاضر يا أفندم..

ــ العربة جاهزة لنقلك..

ــ وأنا على استعداد يا أفندم..

*** *** ***

# الفصل السادس

تجمهر لفيف من الأطباء والممرضات في الساعات الأخيرة من الليل على أمل أن تعود الحياة إلى الجريح الميئوس منه ، ولكن الروح تلاعبهم بل وتداعبهم أحيانًا ، حتى شعر الجميع أنه لا أمل من عودة المصاب للحياة ، فودعوا الأمل وانطرحوا تحت ستار الألم ، وهو ستار لا يعرف الإنسان إلى متى سيظل قابعًا خلفه؟! ، وإلى متى سيتواري عنه؟! .. ولكنه ألم شديد يأخذ أحيانًا أرواحًا لأشخاص معه ، ويذهب ليتربص ولينتهز الفرصة ليعود مرة ثانية...

ورفع الدكتور "عادل" قامته متململاً شاهقًا فاقدًا كل أمل نحو نجاة هذا المطروح على فراشه ، وزم شفتيه وقام وجاء وخرج ليعود مرة ثانية ، والجميع تائهون في الخيال الواقع ، في الألم والأمل ، في الحياة والموت ، وعلى اختلاف درجاتهم وعلى اختلاف ميولهم ، إلا أن جميعهم كانوا بلا استثناء يفكرون في هذه الأشياء...

وجاءت تباشير الصباح ، وأرسل الدكتور "عادل" في طلب جرائد الصباح ، وفور وصولها وقع بصره على خبر صغير بالصفحة الأولى يقول:

ـ "وقعت حادثة لسيارة أجرة القليوبية فتهاوت من فوق كوبري قها ، وتهشمت تمامًا على شريط السكة الحديد ، ونقل جميع من كانوا بها إلى مستشفي قها وهم في حالة سيئة ميئوس من شفائهم ".

وعبر ابتسامة باهتة للدكتور "عادل" مدير مستشفي قها قال:

ـ هل نقلوا إلينا مرضى أم جثثًا بلا حياة!!

فرد عليه أحد الموجودين ، ليبدد الصمت:

ـ كلام جرائد... وحتى السائق قد رحل بعيدًا عن هذه الحياة ، ولم يبق أمل في العودة إلى الحياة سوى لهذا السعيد التعيس!!

وتصفح الدكتور بقية الجريدة بسرعة حتى وصل إلى الصفحة قبل الأخيرة ، فرأى عمودًا ضخمًا يروى قصة الحادثة... ففي صفحة الوفيات قرأ نعى مديرية الشرطة للشهداء حيث قرأ:

ـ "تنعى مديرية الأمن بالقليوبية بمزيد من الأسى والحزن فقيد الشرطة وشهيد الواجب الرائد "رفعت"... فللشهيد الرحمة وللأسرة خالص العزاء".

"ينعى اللواء "طلعت" مدير أمن القليوبية الرائد "رفعت" ويواسى أسرته فله الجنة ولها الصبر والسلوان".

"مأمور مركز طوخ والضباط والصف والجنود ينعون بمزيد من الأسى والحزن فقيد الشرطة الرائد "رفعت" له الرحمة ولأسرته الصبر"...

..... ..... ..... .....

..... ..... ..... .....

وتتابعت عيناه وراء الكلمات والسطور المتتالية المنشورة ، وكأن لم يمت أحد سوى الرائد "رفعت" ، ثم أبصر فقرأ:

ـ "تنعى مديرية الأمن بالقليوبية ومركز الشرطة بطوخ وجميع العاملين بها الأبطال رقيب "سليم"... وعريف "سعيد"... اللذين استشهدا وهم يؤدون العمل البطولي رحمهما الله وأدخلهما فسيح جناته".

وهنا ضرب الدكتور "عادل" كفًا بكف ساخرًا ، قائلاً:

ـ افتكروهما في النهاية... عمودان ونصف للرائد وخمسة أسطر للعريف وللرقيب ... وبالطبع لا شيء للسائق!!

وقرأ عزاء أسرة الرائد وفي نهايته "وستشيع جنازته مع الرقيب "سليم" والعريف "سعيد" في موكب عسكري في الواحدة من بعد ظهر اليوم!!

وقام ليحاول رؤية مدى تحسن المصاب الوحيد الباقي على قيد الحياة ، وهو "حمدي" وعند قياسه لضغط دمه وجده في تحسن ، وأيضًا درجة حرارته فقد هبطت لتسعة وثلاثين درجة... وهنا أدرك أن الحياة قد عادت إلى المريض وطغى أمله على ألمه في نجاة الراقد على الفراش من الموت...

فلقد ظل الطبيب ، طول الليل ، يحاول تخفيف ألم المصاب ، ويحاول أن ينقذه من حالة موت محقق ، وها هو ذا الآن قد تكلل تعبه بالنجاح ، فلقد كان هذا المصاب ميئوسًا من حالته ، فعندما حضرت عربة الإسعاف إلى مكان الحادث ورأت بشاعته – حيث تهاوت السيارة من أعلى الكوبري مخترقة الرصيف والسور الحديدي وتهاوت متناثرة هنا وهناك على عرض شريط السكة الحديد – وعندما وجدوا فيها الرائد بملابسه العسكرية والشرطيين حملوا الجميع فورًا وعادوا بهم إلى المستشفي ، واكتشفوا أن الجميع قد فارقوا الحياة منذ زمن ، فمن يستطيع أن يتصور أحد يسقط من على هذا البُعد الشاهق ولا يسقط مهشماً تمامًا... وعندئذ عندما بدءوا في نقلهم إلى المشرحة ، حتى يقوم الطبيب الشرعي بالكشف عليهم وتقديم تقرير عنهم للنيابة ، فوجئوا ابتسامة تعلوا فاه أحد الموتى ، وكان هو المصاب "حمدي عز" مازالت الابتسامة على شفتيه ، فنقلوه فورًا إلى حجرة العمليات ، حيث وجد مدير المستشفي الدكتور "عادل" وجود عدة كسور في ظهره وساقه وشروخ في الشرايين ، فقام بعمل العلاج والعمليات اللازمة بعزيمة وإصرار ، ولمدة طويلة متواصلة وصلت إلى خمس ساعات قضاها في حجرة العمليات ، بين اليقين من نجاته والشك في ذلك ، حتى تم له ما أراد ، وانتهت العملية بفضل الله على خير وسلام ، وأصبح الباقي من أمر الشفاء والحياة من عدمها على الله عز وجل والعناية به...

وتاه عقل الدكتور "عادل" في أحلامه ، إذ تذكر زوجته الطبيبة التي تعمل في القاهرة وقد تأخرت اليوم حتى حضوره إلى المستشفى في السابعة والنصف مساءً .. فهل حدث جديد أم ماذا؟.. إنه قضى الليل هنا ولا يدرى هل عادت أم لا؟!

وذهب بعقله فيما يتداول من أن أجور الأطباء مرتفعة جدًا؟!... إنه يرى دائمًا أن الطبيب هو ملاك الرحمة ورسول الله من الصحة والسلام على ظهر الأرض ، وما يحدث من قلة جشعه لا تمت بصلة لهذه المهنة وشرفها ، فهي مهنة إنسانية ، فهو مثلاً لم يأت اليوم بعد ليفتح عيادة خاصة مع أنه طبيب منذ خمسة

عشر عامًا ، وإن كان يعمل مع مجموعة من زملائه الراغبين في الخدمة العامة في عيادة شعبية قيمة الكشف نصف جنيه فقط ، وتُؤْخَذْ من أجل الإيجار والكهرباء والمياه والخدمات العامة للمنطقة ، فلا يستفيد منها مادياً ولكنه سعيد بما يفعله... وجد أن أهمية الحياة لا تتمثل في النقود التي تدخل الجيوب وتخرج منها ، ولكنها تتمثل في المبادئ الهادفة لتوجيه البشرية نحو غد أفضل ، فيها من كل وسائل الراحة والسرعة والقوة ما يكفي لتعادل المستوى بين الشعوب ليستقر العالم... لا في جمع النقود وإنفاقها على الملذات واقتصاد البلد كبلد متنامي غاية في الضعف... هل هذا معقول؟!

وعندما وصل إلى هذا الجزء من تفكيره ، سمع صخبًا يدور حوله ، وأفاق من خياله وأحلامه ، وإذ به يجد المريض المصاب يفيق من غيبوبته ويقول:

ـ أين أنا الآن؟!.. أين أنا ؟

فأسرع إليه الدكتور "عادل" ، كأب متمرس على معالجة تلك المواقف ، وعلى التخفيف من وطأة آلام النزلاء :

ـ أنت هنا ضيفًا علينا... هل ترضى بالضيافة؟..

ـ شكرًا... شكرًا !!..

قالها المصاب ، وأسند رأسه على الوسادة وذهب في غفوة قصيرة ، بينما توجهت إليه إحدى الممرضات لترى ما وصلت إليه درجة حرارته وضغط دمه ، وهنا صاحت بفرح وسعادة :

ـ التقدم هائل يا دكتور ... الحرارة سبعة وثلاثون ونصف والضغط ١١٥، مرحلة الخطر انتهت..

وهنا قام الدكتور "عادل" وعلى وجهه ابتسامة كبيرة من الفرحة والسعادة لتقدم حالة المصاب ، وقام وأحضر زجاجة من محلول الجلوكوز ، وعلَّقها في ذراع المصاب ، حتى يتمكن هذا المريض من استجماع قواه الخائرة ، التي قد تكون السبب في فقدان وعيه من تأثير المخدر...

وعندما أتم الدكتور عادل ، ذلك ظهرت آثار الشفاء على تقاطيع وجه العجوز المصاب ، وتماثلت تقاطيع وجهه للاختفاء ، لتظهر أنه ليس في حاجة إلى المساحيق لتذهب بهذه التجاعيد التي تظهر في الشيخوخة...

وجلس الطبيب الحائر الواثق من نفسه ، ينتظر حتى يرى المصاب يستعيد ما فقده من قوة وصحة أثناء الستة عشر ساعة الماضية.

وفوجئ الدكتور "عادل" بأن هناك من ينتظره في مكتبه في ذلك الوقت العصيب ، وذهب إليهم على عجل ، لا لسبب إلا ليعود على عجل ، وذهب فدهش عندما رأى ثلاثة ، من بينهم رجل وسيم ، ظنه في بداية الأمر زميلاً في المهنة قديمًا أو شيئًا من هذا القبيل ، ولكنه عندما ألقى عليهم السلام وشد على أيديهم جميعًا ، عرف منهم كل شيء فهم ثلاثة من المخابرات العامة ، قد حضروا إلى المستشفي لمراقبة المريض من بعيد حتى لا يشعر بشيء ، وعندما سألهم عن كنهه ومن هو؟! ، أجاب الوسيم الذي يعمل ضابطًا في المخابرات الحربية أنه يخص إدارته وهم الذين يعنون بأمره...

وجلس الدكتور يفكر في كيفية قيامهم بعملهم دون أن يُكتشفوا أو تُلقى بعض الظلال حول شخصياتهم ، ثم هل لو حدث وكُشِفَ أمرهم .. فمن يضمن عدم ذهاب روح المصاب إلى بارئها من الخضة ؟!! ، حيث ومن الجائز أن يصاب بصدمة عصبية تودي بحياته؟! ..

وعندما صارحهم بما يجيش في خاطره أيدوه ، وظلوا يتناقشون في كيفية ممارسة عملهم المنوط بهم وقيامهم بواجبهم الوطني ، وبعد مناقشة حامية تم اتفاقهم على أن يمثل اثنان منهم دور المرضى ، ويقومان بعمل عمليات وهمية بواسطة الدكتور "عادل" ، ومن هنا ينامان على سريرين في نفس عنبر المصاب ، وهنا لن يشعر أحد بشيء ، وأيضًا يمكنهما المراقبة بالجدية والدرجة المطلوبة من الدقة ، أما رئيسهما الضابط فيقوم بالعمل كطبيب جديد نقل من مستشفي بركة السبع المركزي ، ومن ثم يمكنه التردد على حجرة المريض ، وتؤدى هذه الحيلة إلى الدقة في المراقبة ، على ألا يكتب الطبيب المزيف أي دواء لأي

مريض ، ولا يقوم بالعمل على الكشف على السيدات ، وما إلى ذلك من الممنوعات التي تمس خدمة الطبيب كمهنة إنسانية..

وقال الدكتور عادل بعد المقابلة:

ـ ما أسعد الأيام القادمة التي ستكون لذيذة بحوادثها ومفاجآتها ، والخبر الذي له ثمن اليوم سيكون غدًا بلا ثمن له...

وهكذا جاء المريضان بواسطة سيارة الإسعاف ، وحاول الدكتور أن يسبغ عليهما جوًا من العناية والاهتمام .. ولكن هيهات .. فالحادثة فادحة والأمل في ذلك سوف يقدم تجربة مهمة يسمعها الجميع لتكون أُقصوصة ، ويكون مثلاً يحكى للصغار حتى يحاولوا أن يظلوا على تمسكهم بالعمل وبالأمل ، لأن ذلك يعطى لأبطال الغد شحنة قوية من عدم اليأس والتمسك بالأمل الدائم ، فالأمم ـ في كل العصور ـ بقيت ونضجت بالأمل وبالأمل وحده...

وعندما انتصفت شمس النهار التالي ، قام أغلب الموجودين حول سرير "حمدي عز" بعد أن شاهدوه وهو يطلب طعامًا ، ولكن الدكتور منعه ، وكانت صحته تسير بسرعة نحو الشفاء الكامل والتام حتى يبلغ أوج صحته ، وطلب أن يستريح جالسًا وأيضًا لم يوافق الطبيب المرافق ، حتى ظن المريض المصاب أن حالته سيئة جدًا ـ ولكنه شعر بغثيان ودوخان ، عندما سألهم عن النقيب "رفعت" ، وكيف جاء هو إلى هنا؟! .. وعندما قالوا له اهتم بصحتك فقط لأن النقيب "رفعت" قد انتقل إلى رحمة الله .. فَرَّتْ الدموع من عينيه ، وازداد دموعا عندما عرف أن الجميع قد ذهب أيضًا إلى الرفيق الأعلى ولم ينج أحد من السيارة إلا هو ، واطمأن أن رحمة الله واسعة ، واستمر ينتظر أن يأتي بعض جنود الشرطة ويضعون الحديد في يده ويسوقونه إلى النيابة العسكرية مرة أخرى ، وكم ستصبح فضحية عندما يعلمون أنه متهم في قضية جاسوسية ، فمن المؤكد حينذاك أنهم سيرجمونه بالحجارة ، وذلك إن لم يقذفوا به من النافذة...

شعر لأول مرة أنه محطم ، لم ييأس في حياته مثل ما يأس اليوم ، لم ير الدنيا وهو ناظر لها ، فقد اضمحلت أمام عينيه لتصبح مجرد رؤية لساعته حتى

لا يذهب فكره لساعة قادمة ومعها الجنود ومعهم اليأس من الشفاء واليأس مـــن النجاة واليأس من الحياة، ولم يدر قدره المكتوب ، فالمخابرات موجـــودة معـــه ،بل وموجودة حوله وموجودة في تلك اليدين اللتين تحسستا جسده من لحظات ، ولكننا لا نقرأ الغيب لأن الغيب لله وحده ، ولذلك فإن حكمة الله عظيمة وتتجلـــى لنا في أروع صورها ، فلو ظهروا له لكانت نهايته كما شعر وأحس ، ولكنه الآن وهمْ بجانبه يشعر بالاطمئنان الوقتي.. وسبحان الله .. إنه تخطيط دقيق مـــن رب العالمين.

وعندما وصل إلى هذا الحد في تفكيره ، كان قد حضر الدكتور "عـــادل" مـــن منزله بعد استراحة قصيرة ــ قضاها بعد عشرين ساعة من العمل الشاق الجـــاد ــ واطمأن على صحة نزيل المستشفي الذي رآه في حالة صحية ممتـــازة ، بعـــد أن قرر المريض أن يطبق مبدأ :

ــ "عيشني اليوم وموتني غدًا" ..!!

ولم يعرف الدكتور كنه هذه الصحة والقوة والحيوية البادية على وجه النزيل العجوز، وعند انتهائه من الفحص الشامل ، أمر لـــه بالطعـــام ، فتهلـــل وجـــه المريض ، وعاد إلى سن العشرين عودة سريعة ، لم يعرف الطبيـــب أســـرارها وكنهها.

وفي تمام الثالثة وبينما يترقب "حمدي عز" حضور الـــشرطة ليأخـــذوه إلـــى النيابة العسكرية ، إذا أسرعت إحدى عاملات المستشفي نحو الدكتور "عـــادل" ، وانخلع قلب "عم حمدي" عندما قالت :

ــ يا دكتور... إشارة تليفونية من مديرية الصحة...

وبسرعة أمسك الدكتور عادل بالإشارة التليفونية وقرأها:

ــ السيد/ مدير مستشفي قها

نرجو رفع حالة الاستعداد للطوارئ إلى الدرجة القصوى ، علمًا بأنه يحتمـــل أن يحضر للمستشفي نزلاء جدد من ضحايا العدوان الإسرائيلي الغادر بالطائرات على قرية ميت عاصم.

ـ إذًا فلا بد أن يخرج كل قادر على العلاج "للعلاج من الخارج" فورًا ...
قالها الدكتور "عادل" مترجمًا الإشارة ثم تابع لمن حوله :
ـ ولكن ما حكاية العدوان على ميت عاصم!!؟!.
وهنا جذبه الطبيب المزيف الذي كان يقف بجانبه وقال له:
ـ أنا أعرف كل شيء ، ولكن لا داعي لإقلاق المرضى المرهقين ، فهيا بنا إلى الخارج وسأخبرك بكل شيء...
وسارا معًا حتى الشرفة ، ثم تحدث الضابط قائلاً:
ـ تسللت طائرتان ، من طائرات العدو الإسرائيلي ـ من الهزيمة على جبهة القتال، لتضرب المدنيين بلا رحمة ولا شفقة ولا احترام لمبادئ حقوق الإنسان ، إنها نزوة المنهزم أن يرى الدم يسيل ، وعندما وصلت الطائرات إلى قرب ميت عاصم ، الواقعة على بعد كيلو مترات قليلة من مدينة بنها ، أفرغت إحداهما حمولتها من القنابل وأيضًا من بعض المتفجرات ، فأصابت مدرسة الكرامة الابتدائية ببعض الشظايا، وذهبت البقية على الأرض الخضراء ، والحمد لله فقد كانت الخسائر قليلة ، وكان الوعي شديدًا باستثناء بعض الحوادث الفردية للأفراد ، الذين تجمعوا حول الأشياء البراقة ، فأصابهم ما تحتويه من متفجرات والحمد لله".
ـ خونة ومجرمون أيقتلون المدنيين؟!!..
قالها الدكتور في عصبية واشمئزاز..
ـ أتراهم يستأذنوننا قبل أن يضربونا... هذه هي طباعهم ، ويجب أن نكسر ظهورهم حتى لا يعيدون الكرة...
وسمعا وقع أقدام ، فتلفت الضابط حذرًا فوجد إحدى العاملات:
ـ يا دكتور... يا دكتور... إشارة ثانية..
وأمسكها الدكتور "عادل" بسرعة وقرأ ما بها :
ـ السيد الدكتور مدير مستشفي قها.. نرجو أن تسلم نفسك فورًا في مستشفي بنها وتضع نفسك تحت تصرف إدارة المستشفى خلال ساعات "

**فقال الطبيب المزيف:**

**ـ ما هذا يا دكتور؟.**

**ـ إنها إشارة من مديرية الصحة... سأتأخر عليكم قليلاً.**

**ـ ماذا؟! هل ستذهب إلى مستشفي بنها فعلاً؟..**

**ـ نعم والبركة فيك وفي الزملاء وخذ حذرك يا...!!!**

*** *** ***

# الفصل السابع

ما زالت العربة تتهادى على الطريق الزراعي بـين مـصر والإسـماعيلية ، حاملة بداخلها بعض الممرضات من مستشفيات القـاهرة ، فـي طـريقهن إلـى الإسماعيلية ، ليقمن بخدمة الأبطال الجرحى .. وجميعهن ناظرات إلـى عـرض الطريق ، تتأملن التربة السوداء ، التي انكشفت بعد أن تم حصد محصول الـذرة وقطع سيقانه ، فغطت هذه الرقعة من الأرض طبقة صفراء متنـاثرة ، وأعطـت للأرض ضوءًا لامعًا تحت الشمس وضوء القمر... كما أن هناك منـاطق تغطـى بلون زبدي ناصع البياض كانت بها أشجار القطن قبل جمعه وجنْيِه.

وهكذا كانت الفتيات ينظرن إلى الطريق آملات متـأملات ، تخفـق قلـوبهن بالأمل في العودة بالسلام ، وفي العمل على أكمل وجه في خدمة الأخوة والآبـاء الذين يدفعون الدم ثمنًا للراحة الدائمة لنا جميعًا..

وما أن وصلت السيارة إلى العباسة ــ وهى نقطة تجمع وملتقى جميع الطرق الذاهبة والعائدة من وإلى الإسماعيلية آنذاك ــ حتى توقفت تمامًا ، وجـاء أحـد جنود الأمن العسكري ــ وقام بالتفتيش على التصاريح الخاصـة بالـدخول إلـى المنطقة العسكرية للجيش الثاني الميداني ومدخل المدينة المناضلة الإسماعيلية ، وذلك بمناسبة الحروب الدائرة أمامها بين قواتنا وقوات العدو ، باعتبارها مدينة مواجهة عسكرية ، ولذلك توقفت السيارة ما يقرب من الساعة ، حتى يمر فـوج من السيارات والمدرعات في فوج كبير ، متوجهًا إلى القتـال ، فلـه الأولويـة القصوى في السير ، لأن الحاجة له أشد ، ثم بعد ذلك بدأت السيارة تسير مـرة ثانية متوجهة إلى المدينة الباسلة ، وظلت تقطع الطريق في حرية تامة ، وبـين الحين والحين كانت تمر سيارة عسكرية لم ير السائق منذ مدة في هذا الطريـق سيارة واحدة مدنية.

وعندما وصلت السيارة إلى القصاصين ، مخترقة الطريق مـا بـين الجبـال الوعرة وحرارة الشمس المحرقة ،حتى أوقف السائق محركات سيارته ، بعـد أن

دخل أمام استراحة صغيرة من القش ، لم يظهر فيها أثر للبناء ، ونزلت مجموعة من هؤلاء الممرضات إلى هذه الاستراحة لتنفض آثار الطريق وترتشف أي مشروب ، ما عدا الصائمات منهن فخلدن إلى الراحة ، إما بداخل السيارة أو بجانب زملائهن في العشة ، وكان عم "مغاوري" الرجل النحيف الأسود الذي يقطن هنا ــ منذ أن ظهر على ظهر الحياة ــ قد عقد العزم على أن يستمر في الإقامة في المنطقة ، ورفض بشدة الهجرة مع المهاجرين ، بالرغم أن المهاجرين كانوا يتقاضون نقودًا ومساعدات كثيرة مادية وعينية ، أما هو فلم يأبه ، واستمر في إقامته ، يشاركه الجنود في الجلوس في الاستراحة وارتشاف القهوة أو الشاي أو الشيشة ، ويرفض أن يأخذ منهم مليمًا واحدًا ، وتحت إلحاح شديد قد يقبل وها هو ذا الآن فرح سعيد لعبور القوات والنصر، رغم قلة زبائنه الآن ، إلا أنه يشعر أن العبور هو خير طريق للتقدم والرفاهية والمستقبل للوطن وله.

وقضت الفتيات وقتًا لا بالقصير ولا بالطويل ، ولكنه كان وقتًا ممتعًا قضاه بعضهن في غفوة قصيرة بالسيارة والأخريات في مداعبة عم "مغاورى" الذي رفض وأقسم في النهاية على عدم أخذ أي نقود مقابل المشروبات ، هدية منه وفرحة بالنصر ، ثم قام وودعهن وداعًا باكيًا متفوهًا بكلمات الدعاء والثناء ، والرغبة في اللقاء الدائم في مشرق بالأمل والخير والرجاء.

وأخيرًا ... وصلت السيارة إلى مشارف الإسماعيلية عند ( نفيشه ) ، فأبقتهن الشرطة العسكرية لمدة ساعة بعد مقابلة سارة بين الممرضات والجنود ، وكان أذان المغرب قد مضى منذ وقت قليل ، فدعا القائد كل الممرضات سواء الصائمات أو غيرهن للإفطار مع الجنود على مائدة واحدة ، وأكل الجميع وشرب ، وبعد ذلك حضر القائد وركب معهن السيارة بجوار السائق ،حتى وصل الجميع إلى مستشفي الإسماعيلية ، ولكن ما أن وصلوا حتى ظهرت في الجو ثلاث طائرات معادية بهدير صاخب وتفجير شديد ، سمعه الجميع عن قرب ، بعد أن لجئوا إلى مخبأ ، وبعد دقائق عادت الحركة تدب بعد أن سقطت الطائرات الثلاثة

، فيالها من مدينة لم يرهبها صوت الانفجارات والمدافع بل أرهبتهـا الهزيمـة ، ولكن النصر عاد إليها وإلى مصر والحمد لله رب العـالمين علـى هـذا النـصر المُبين.

وبعد لحظات .. كان الجميع في المستشفى الميداني قد تسلم العمل في همـة ونشاط ، باذلاً كل الجهد لتخفيف الألم عن المصابين حتى يصلوا إلى المستـشفي العسكري لاستكمال العلاج ، فالخدمة في مستشفي ميداني صعبة وهامة ، حيـث أن حياة المريض متوقفة على دقة هذه الإسعافات الأولية وعلى سرعتها ، فهناك مريض يحضر إلى المستشفى بعد أيام عديدة من إصابته ، نظرًا لأنه قـد يكـون خلف الخطوط أو في مواقع متقدمة ، فلا يتمكن من الذهاب به إلى المستشفي إلا بعد أن تخف حدة النيران ، وقد يستمر في المستـشفي أيامًـا عديـدة للحـالات الطارئة التي يمكن أن تشفي بسهولة هنا ، أما الحالات الـصعبة فيجـرى لهـا عمليات في مستشفيات عسكرية آمنة وثابتة في العمق المـصري بعيـدًا عـن طلقات المدافع..

ولذا فإن الجميع هنا يعمل حتى يتمكن المصاب من العودة إلى القتال فـورًا ، وهذا هو الهدف ، إسعافات أولية ينتقل بعدها المصاب لوحدته إذا تم شفاؤه ، أو ينتقل للمستشفى العسكري المتخصص إذا كان يحتاج لرعاية طبية ... إنه العمل الدائب لنعطى مقدارًا ولو قليل من عمل هؤلاء الأبطال.

الغارات تتوالى والطلقات تطيش حول المستشفي الميـداني ، ولكـن العمـل بداخلها يجرى على أكمل وجه ، هذه تغطى على الجراح بغيار جديـد .. وتلـك تُحَضِر الدواء للمريض .. وأخرى تُحَضِر مريض لحجرة العمليـات .. أو تعيـده إلى سريره .. وترى هناك ممرضة أخرى تقف بجوار الحامـل وعليـه زجاجـة الدماء لتعطى للمريض المحتاج لعملية نقل دم ... حركة دائبة كخليـة تامـة .. الحركة سريعة : دخول وخروج .. فهناك مئات يحضرون إلى المستـشفي كـل ساعة ، كل منهم له جرحه وآلامه الذاتية التي تختلف عن آخر ، فهذا أصـيب بشظية في عموده الفقري وذلك نتيجة للقصف الجـوى .. وذاك أصـيب نتيجـة

طلقة خارقة حارقة من طائرات الفانتوم في ذراعه الأيمن .. وآخر في يده وذراعه نتيجة انفجار لغم أرضي ، ونرى مجموعة من الجنود مختلفة أصيبت نتيجة الشظايا المتناثرة من سيارة محترقة أو غيرها ، الإصابة في جسدها بأكمله ، فهذا قد وصلت الشظايا إلى الرئة .. وذاك قد وصلت إلى قرب القلب .. وثالث سارت الشظايا في طريقها إلى مسالكه البولية .. الكل مختلف عن الآخر ، فالظروف ليست واحدة ، والمعارك ليست بنفس القوة ، والجيش الثاني أقل في خسائره ، ولكن الإصابات كبيرة نتيجة كثرة القصف الجوى ، فالجيش الثاني بطوله يعمل كأسود جياع ، إذا أصيبت لا تيأس ، بل تزداد شراستها وهجومها ، فلا يوجد هناك من تخاذل ويأس تحت تأثير شدة الإصابة ونزيف الدم الضخم ، وندر من تكاسل منهم ، فالجميع يعملون بكل ما لديهم من قوة.

وما زالت الشظايا تتناثر حول المستشفي الميداني في الإسماعيلية...

و"هانم" تعمل بلا قنوط ، لا يعرف الملل طريقه إلى نفسها أو قلبها ، شعرت بأن كل واحد من هؤلاء المصابين شقيقًا قريبًا من نفسها ، وحاولت أن تنسى والدها .. وماذا يفعل الآن؟! .. وما عساه أن يكون مشغولاً عليها .. ولكنها رأت أن هؤلاء هم السبب في راحتها وأمنها ، فمنهم أشقاؤها ووالدها وأولادها في المستقبل .. نعم هم العاملون والمضحون من أجل راحتها، فهل تبخل هي من أجل راحتهم بساعات بل بدقائق من أجلهم... إن كل منهم كان احتمال الحياة عنده لا يزيد عن ٥٠% بسبب الحرب ، و٥٠% لديهم احتمال استشهاد أثناء المعركة ، ومع ذلك دخلوا المعركة أملاً في الحياة الكريمة لهم ولأسرهم ولمجتمعهم بعد ذلك.

اشتد القصف الجوى ، وجاءت عربات كثيرة تحمل مصابين ، والمستشفي مكتظة بما فيها ، كلهم يعالجوا حتى الشفاء ، حتى وجدت الممرضات ووجد الأطباء نفسهم أمام الأمر الواقع، لا بد من أن يضعوا أسرة في الطرقات... في حديقة المستشفي .. كل مكان نحميه بدمنا وروحنا ما دام في وطننا العزيز... الحركة مزدوجة خروج ودخول... أما الخارجون فهم فئات : فئة تذهب إلى

الشرق حيث تواصل البطولة نحو النصر القريب بعزم ثابت وإرادة صلبة لا تلــين ، وفئة تواصل طريقها نحو الغرب أو جنوب غربي نحو القــاهرة والإســكندرية وبقية المدن المصرية ليواصلوا العلاج أملاً في العودة إلــى الجبهــة لمواصــلة القتال ، أو إلى أسرته سليمًا معافًا ، أو يحمل وسامًا خالدًا أبــد الــدهر وســام النصر...

وهكذا الحال عربات تجيء بالأبطال الراغبين في الشفاء العاجل ، تــستقبلهم أيادي وقلوب ملائكة الرحمة ، وأخرى راغبة في البقاء على ســاحة المعركــة ، وفي قلبها للاستمتاع بالنصر وبالرخاء ، تودعهم قلوب الممرضات برغبة سريعة في الشفاء.

والحالة في المستشفي ممتازة ، فلكل مريــضين أو ثلاثــة مــنهم ممرضــة ترعاهم ، وكل ثلاث ممرضات لهن طبيب يشرف عليهن فــي صــمت ، وهنــاك حجرة عمليات ميدانية بها مجموعة من خيرة أطباء مصر من مدرسي وأســاتذة كليات الطب، وتجرى العمليات في سهولة وسرعة... المريض الذي يقول :

ــ "آه" من الألم ..

يجد من حوله الممرضات والأطباء ، وأطباء الدم ، مجموعة تمتــاز بالخفــة كالغزلان وبالمرح وبالقوة كالخيول ، وهم مجموعة أعطاهم الله العلم حتى يعطوا هؤلاء الأبطال الأمل والشفاء والأماني السعيدة...

وضحكت هانم عندما سمعت بعض الأطباء يتهامسون وهم يستريحون قليلا :

ــ لقد اختفت في أيام حرب أكتوبر كثيرًا من جزارة الأطباء... هؤلاء الــذين يقومون ببتر أي جزء مصاب أو مكسور حتى يتخلصوا من وجــع الــرأس مــن كثرة الألم والصياح وتعالى يا دكتور... أصبح الطبيب يفعل كل ما لديه من علــم وخبرة في محاصرة المرض قبل أن يكبر... يحاول أن يقاوم الجــراثيم ويعزلهــا حتى يتم القضاء عليها .. أما إذا أصيب مقاتل بالغرغرينا ، فهنا لا بد أن يحــدث المقدور والمكتوب ويتم البتر بدلاً من بتر الحياة ذاتها . فإن حرب أكتوبر حررت الطب المصري من ركوده إلى تقدمه المذهل..

ونزلت "هانم" لتعمل في حديقة المستشفي بعد امتلائها بالأسرة البيضاء ، حاملة الأبطال الشجعان ، الذين حولوا أيامنا السوداء إلى أيام ناصعة البياض ، ومضت تواسى هذا .. وتخفف آلام ذاك .. وتذهب بأحد الأبطال إلى غرفة العمليات .. ثم تعود لتعطى زجاجة دم لآخر ، لفظ بعض دمه الذي عاش بعض أيام الهزيمة ليدخل جسده دم جديد تبرع به أحد الأبطال في الجبهة الداخلية ، حتى يتم شفاء البطل الذي يحتاج لهذه القطرات من الدم.

هكذا التعاون في ميدان الجهاد ، كما تعاون الإنسان المصري مع مجتمعه في ميدان العمل وميدان المجد... فهذا المقاتل قد يموت إذا لم يتبرع أخوه المدني ببعض دمائه الذكية ، التي أعادت الأمل إلى من أعاد إلينا النصر .. و"هانم" ما زالت تبتسم لهذا ولذاك ، حتى تطمئن قلوبهم ، وينضر عودهم بعد الإصابات التي لحقت بهم... كان هناك بعض الأطباء ينظروا إليها وإلى جمالها الفاتن نظرة كلها أمل ولهفة بل وشوق كبير ، فالجميع في خلال ساعات عملها الأولى قد منحوها حبهم وثقتهم ، والكل ينظر إلى عملها المتواصل على أنها بطلة لا نهاية لبطولتها ... البعض ظن أنها متطوعة بشهادة التمريض بالقوات المسلحة ، وهى تعمل بعيدًا عن ضوضاء المدينة ، خوفًا من الرجال ، أو تعبيرًا عن عقدة في باطنها لجميع من ألهب نيران حقدها الدفين من بعض الشباب والرجال ... ولكن القلة وعلى رأسهم الدكتور "كامل" ــ وهو طبيب من مستشفي قويسنا المركزي ــ سارع بالانضمام المؤقت كمتطوع في إدارة الخدمات الطبية بالقوات المسلحة ، من أول يوم في المعركة ، نظر إلى عملها بشغف على أنه تضحية منها وإيمانا بتكتل الجميع وراء القوات المسلحة ، وشعر في قرارة نفسه أنها لم تدخل القوات المسلحة إلا منذ يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، لأن الحماس زائد والأناقة بادية ، بالرغم من جو العمل المرهق ، فالمتطوعة منذ زمن بعيد تنسى أناقتها في زحمة العمل ويزداد الفتور كلما زادت ساعات العمل ، وتقرب منها وتودد إليها وراقبها عن بعد فكانت خطتها واحدة ولم تقنط لحظة واحدة من عملها ، وذهب إليها وقال لها :

ـ يمكنك الآن أن تذهبي للراحة ، أنت تعملين هنا منذ ثلاثين ساعة متواصلة حتى الآن ..

ـ شكراً ولكنى لست مجهدة نهائيًا..

ـ لا بأس ، ولكنك لا بد أن تأخذي قسطًا من الراحة..

ـ ولكن من أنت؟

ـ أنا... أنا... أنا "كامل" ... الدكتور "كامل" !!!!!!!!!!!!!!!!!!!.

*** *** ***

# الفصل الثامن

دخل الدكتور "عادل" بخطوات ثابتة ، ملؤها الثقة في النفس والعزم في العمل ، على مكتب الاستقبال بمستشفي بنها العام ، وهناك استقبله الدكتور "حلمي" مدير المستشفى استقبالا باسمًا ، وعلى الفور كان الدكتور "عادل" في غرفة العمليات ، لم يكتف بالعمل في قسم العظام .. على ضخامة العمل به ، ولكنه رأى أن يدخل مباشرة ليقوم بعمل العمليات الخاصة بالعظام ، وفوجئ بكثرة المنتظرين تحت وطأة ألم الإصابة ، كلٌ ينتظر دوره في حجرة العمليات ، ويا ويلهم من طول الانتظار ، فعمليات العظام بطيئة للغاية حتى يأخذ كل مصاب حقه كاملاً في العودة سليمًا معافًا إلى بيته ، ولكن هناك دائمًا في شتى نواحي الحياة أشياء صعبة قد لا ينجح أمامها الإنسان في محوها حتى تستمر سهولة الحياة.

ولذلك فقد قابل الدكتور "عادل" بعض هؤلاء من المصابين بكسور مضاعفة وكسور ضخمة ، ومع ذلك فقد كان يشغل كل ما في عقله من علم ليستفيد أولئك الضحايا منه .. ولما لا ؟! ، والدكتور "عادل" مثال الإنسانية الخالصة ، فهو إنسان أولاً ، يحبه كل من يراه ، وعالمًا ثانيًا ، يحترمه كل من يلقاه ، وكانت بداية عمله في مستشفي بنها كان مع سيدة في مقتبل العمر مع أنها متزوجة ولديها طفلان ، فلاحة وزوجة لفلاح من قرية سندنهور مركز بنها... كانت قد حضرت لمدينة "بنها" مبكرة لتبيع بعض ما حملته من قريتها من البصل والثوم والجبن القديم ، وكانت الحركة سريعة كعادة الأسواق في شهر رمضان ، وسرعان ما ابتاعت كل ما تريده ، وخرجت مسرعة من بنها وأسرعت حتى تستطيع أن تعد الطعام لأولادها ولزوجها ، وحين وصلت للخط السريع الزراعي بين مصر والإسكندرية عند مشارف بنها ، وجدت الدمار في لحظات ولم تجد يدها اليسرى ، ولم تر كيف تم هذا ولا حدث ذلك؟ .. وبالطبع أُغمى عليها ولم تر الحياة مرة أخرى إلا بعد عمل الإسعافات الأولية ، ودخلت غرفة العمليات عند الدكتور "عادل" ، فطمأنها وأوقف كل آلامها ، وخرجت بقصة ، دونها الدكتور

"عادل" في عقله لمواطنة فلاحة مصرية بريئة اعتدى الجناة عليها ولم يتركوها تعيش في سعادتها مع ولديها وزوجها...

وأخرى لعامل في مدرسة الكرامة الابتدائية كان يقوم بتنظيف المدرسة بعد أن تم طلائها استعدادا للعام الدراسي ، ولكنه فوجئ بالهرج والمرج وزئير الطائرات وهو يمسح البلاط ، ولم يشاهد سوى ارتجاج حائط بجانبه بعنف ، وبعدها لم يع شيئًا إلا بعد أن قام له الدكتور "عادل" بكل شيء ، فالإصابة بسيطة وهى كسر حلقة العمود الفقري ، ذلك العمود الذي تصدى للعثمانيين وللإنجليز وللصهاينة في العصور الحديثة ، وعمومًا فقد تم عمل التدليك اللازم ، وتمت العملية بنجاح نظراً للسرعة والخبرة للدكتور عادل ، فلقد كان من المفروض أن تتسرب هذه الإصابة ويصاب الجسم بشلل رباعي أو على أحسن الفروض شلل ثنائي ، ولكن الحمد لله والله ستر وفداك يا مصر مائة ألف عمود فقرى وليست حلقة واحدة...

ولكن عم "فوزي" الميكانيكي الذي أصيب وهو يعمل في ورشة على الطريق الزراعي أمام ميت عاصم ، والذي أصيب ببتر ثلاثة أصابع من يده اليمنى وبتر ذراعه اليسرى ، فعم "فوزي" بعد أن جلس معه الدكتور "عادل" يقول :

ـ صحيح أن لي الفخر بأن أكون مصابًا بقنابل الأعداء دفاعًا عن وطننا الغالي ، ولكن تقول لمن؟! هل صاحب العمل سيجعلني أعمل عنده مرة أخرى ..

ويجيب على نفسه :

ـ بالطبع لا... إنه في الأمان في منزله وأنا أعمل وهو يقبض الثمن ولن يعطني تعويضًا ولن يمكنني أن أعمل الآن ، فكيف سأعيش!! .. قل لي بحق السماء كيف أواصل الحياة في عالم إن افتكرني اليوم سينساني غدًا... وإن ظل عالقًا بي الغد فلن أرى أحد حولي بعد الغد، إنها قسوة الحياة يا دكتور... إنني لم أشأ الزواج ، مع أن أجرى اليوم جاوز الجنيهان يومياً ، ولكن كنت أحس بما سيحدث ، والحمد لله عندما أنال الموت الآن لن أضر أحدًا والله يغفر لي إن أسأت...

فتبادل معه الدكتور "عادل" النقاش مؤكدًا له أن هذه ليست عاهة ، بل هي وسام العدوان والبطولة على كل من صد العدوان بكبريائه...

ــ وهل يمكن أن ننساك؟!

قالها الدكتور "عادل" متسائلاً وهو يخفف من آلامه ، ثم واصل:

ــ عندما يراك فرد لن يقول إنك تسرق ثم قطعت يداك !!!...

ولكن الجميع يقول وسيقول:

ــ إنه البطل الذي تحمل الرصاص والقنابل حتى لا تنفذ إلى صدرنا نحن!!

وهناك في المستشفي قابل عشرات النماذج ، الكل له رأى ، والجميع إن لم يكن سعيدًا بإصابته فهو ليس آسفًا عليها... وهناك شبه إجماع على أن الجميع لديه أمل في غد مشرق يعم بالرخاء... والجميع أغلبهم لم يشاهدوا كيف أصيبوا ما عدا واحدًا هو عم "حسن" ولم يكد عم "حسن" يبدأ حديثه ، حتى سمع الدكتور عادل صوت زوجته التي لم يرها منذ يومين كاملين ، فأسرع لمصدر الصوت فوجدها ، فأسرع إليها وأخذها بين يديه وقبلها بعينيه وسألها:

ــ أين أنت...؟

فأجابت بنفس اللهفة :

ــ إنني هنا منذ ساعتين فقط ، وقد كنت قد ذهبت لأجرى عملية سريعة بمستشفي ميداني في حدود السويس ، وعدت بعدها لأجد أمرًا بانتدابي هنا في المستشفي.

فسرَّ لوجودها بجانبه خصوصًا وأنها طبيبة عظام ستساعده كثيرًا في عمله ، وأخذها وقد تشابكت الأيدي والقلوب إلى حيث يرقد عم "حسن" ، ليواصل سماع قصته : كيف أصيب وكيف شاهد نفسه الإصابة التي أدت إلى فقد ساقه تمامًا من فوق الركبة بحوالي عشرة سنتيمترات. فلقد كان عم "حسن" رجلاً مُسناً إلى حد ما ، وله لحية طويلة بيضاء اللون ، وكان ما يزال محتفظًا بجلبابه الصعيدي نظرًا للعجز في الملابس البيضاء نتيجة كثرة النزلاء ، وصوته عالٍ ولكنه خافت نتيجة عدم رغبته في تضييق الخناق على زملائه الجرحى في العنبر وعدم

إزعاجهم ، ولهذا فهو كان يبذل كل ما في وسعه حتى يكون صوته خافتًا... وبدأ عم "حسن" الحديث :

ــ كنا ثلاثة نجلس أمام القهوة ، بجانب محطة التعاون للبترول في بنها ، رأينا وقع النيران ودوى القنابل على بعد... أيقنا أن الخطر قد جاء ، فذهبنا إلى ميت عاصم فكانت المنطقة محاصرة من قوات الأمن والدفاع المدني ، ولم نستطع المساعدة ، ورجعنا لنشرب الشاي وندخن الشيشة في صمت ، وكأنهم قد داسوا على كرامتنا عندما منعونا من معاونتهم في سرعة إزالة آثار العدوان ، ولشدة ما أسفنا على هذا المنع ، ولكن كان لنا الحظ أن نكون من الضحايا... أبصرنا رجلاً يحمل في يده منبهًا جميلاً أنيقًا به نتيجة يومية أوتوماتيك ، وكان شكله جذاباً لشرائه ، فقبل أن يدخل القهوة ليعرضه هنا للبيع ، نادينا عليه وأخذناه في ركن قصي ، حتى لا ينافسنا أحد عليه ، وتفرجت عليه وأعجبني ، وسألته عن مصدره فأسكتني : إن كنت أشترى أم لا ؟! ، وكنت أظن العملية "صيد" ثمين ، فقلت له بأربعة جنيهات ، فرفض وزدت المقابل لخمسة ثم ستة جنيهات ، وقبل أن أعطى له السبعة جنيهات التي طلبها ثمنًا له ، فوجئنا جميعًا بما لا يخطر على البال... انفجار كبير هز أركان المكان ، وكانت إصابتي ، لقد طارت ساقي ، ولم يمكث فاصل بينهما وبين الجسم سوى شريط من الجلد ولم أعرف :هل أصيب الثلاثة أم استشهدوا...

وواصل القول بحسرة وندم :

ــ إنه خطأنا وخطأ الزميل الذي وجدها فأغرته فكانت إصابتنا. لم نكن ندرى أن هذا في الإمكان حدوثه ولكن القضاء والقدر لأننا لا بد أن نرى المكتوب ، وشيء من الحرص كان يمكن أن يجنبنا هذا كله... تصور يا دكتور كنت في تمام الوعي حتى دخلت غرفة العمليات هنا... يمكن كنت في ذهول تام ولكنني لم أغب عن الوعي.

وخرج الدكتور "عادل" وزوجته الدكتورة "هناء" ليتجولان قليلاً بعد وقت عمل طويل لا يدري كيف مضى وكم مضى من الوقت؟ ... ولكنه كان يعمل سواء

عمليات في حجرة العمليات وسواء عمليات غسيل مخ جديد، لأولئك اليائسين من الحياة بعد أن فقدوا أجزاء من أجسادهم رمزًا للفداء والبذل والعطاء.

تجولا قليلاً في بنها ثم انحرفا على الكورنيش ، وما لبثا أن وصلا إلى نـادى التجديف فدخلاه للاستراحة ، وكان طول الوقت يتحدث الدكتور "عادل" عن هـذه القصص والبطولات للمدنيين وواصل الحديث دون أن تتكلم هي ، ثم قال:

ــ أغرب قصة إصابة سمعتها من سائق كان متوجهًا إلى مشتهر لنقل بعض الفواكه، وعند مشارف بنها سمع صفارة الإنذار فأوقف محركات سيارته في ركن قصي من الطريق وأسرع بالاختباء في ظلال الحقول ، وشاهد القنابل في مكان العمليات بالكامل ، وعندما انقبض قلبه لما رأى قنبلة تهشم موتور سيارته ورأس ماله فوجئ بطلقة نارية حارقة ترتطم بجزء صلب خلفه ، وتغيير اتجاهها عائدة لساقه ، فانخلع قلبه للمرة الثانية والحمد لله لم نشأ أن نقطع ساقه فهي سليمة حتى هذه اللحظة . وفي صباح اليوم قمت بطمأنته على أن الدولة قد قررت صرف تعويض رسمي له ، وأنا خائف ألا يحدث ذلك بالنسبة للعربة وأكون كذاب أمامه ، ولكن زوجته طمأنته أن ذلك لن يمر على المسئولين وسوف يقدرون تعويض الملكيات تعويضًا كاملاً.

وأخذ الدكتور عادل هناء زوجته ويديهما ملتصقتين والفرحة تملأ وجهيهما في طريق عودتهما إلى المستشفي بعد أن قضيا بعض الوقت في نزهة قصيرة واستراحة لنحو الساعة تعطيهما نشاطًا وحركة مضاعفة... وعندما اقتربا من المستشفي وعدها بأن يلتقي بها في المساء لنزهة قصيرة أيضًا ، ودخلا من باب المستشفي وأبصرهما موظف في الاستقبال فأسرع الخطى نحو الدكتور "عادل":

ــ يا دكتور.. يا دكتور.. في واحد حالته سيئة جدًا...

ــ من هذا؟! ..

فقال الموظف:

ــ يدعى "فوزي" مبتور الساق والأصابع ...

فذهب من فوره إلى العنبر ونظر إلى عم "فوزي" الميكانيكي ، فوجده يبكـــى بعنف، وهو في حالة يرثى لها... فأخذ عينة من الدم وقام بتحليلها بنفسه فوجــد فيها شيء ما فاكفهر وجهه وقال:

ــ عنده غرغرينا.. يجب نقله إلى حجرة العزل فورًا.

*** *** ***

# الفصل التاسع

الوجوم يسيطر على الجميع في مستشفي الحلمية العسكري بعد أن أعلن العميد طبيب مدير المستشفى عن إصابة أحد المقاتلين المصابين بغرغرينا واضحة جلية ، وهذا المرض جراثيمه وميكروباته تنتقل بسرعة إلى الجروح الأخرى أيًا كانت ، ولذا فيجب عزل المصاب فورًا بمفرده في قسم الغر غرينا الخاص بالمستشفي ، والذي يطلق عليه عنبر العزل ، ولذا فان الوجوم الذي بدا على الوجوه كان مصدره القلق على حياة البطل المصاب وعلى من ستلحقه العدوى من هذا المصاب.

وبدت النقيب عواطف رئيسة قسم (٣) بالمستشفي أقل الحاضرين وجومًا وأسرعهم في العمل على تخفيف حدة الموقف ، فأصدرت الأوامر للرقيب "هديه" الممرضة بالانتقال فورًا مع المصاب إلى عنبر العزل لمصابي الغرغرينا... وبعد دقائق كان باب قسم الغرغرينا مفتوحًا لأول مرة منذ سنوات ،وكان القسم موجودًا في ركن قصي من المستشفي بعيدًا كليًا عن المستشفي به ثماني أسرة ، وملحق به حجرة للعمليات ، وبالطبع فقد اتخذته القطط ملجأً لها ، فالمكان لا يرتاده إنس ولا جان في وسط النهار فيبدو وكأنه مهجور كليًا.

ودخل المريض وبرفقته الممرضة ، وتم نقله إلى سرير في نهاية الحجرة المقفرة، وجلست الممرضة تعد جدول قياس الحرارة والضغط ، والمريض متألم يتفوه بالكلمات بعضها يُفْهَمْ والآخر لا يفهمه أحد ، وربما لا يفهمه قائله أيضًا...

وشعرت الممرضة بزيادة ألم المصاب ، فقامت وأعطته حقنة كالسيوم لتهدئة أعصابه ، وسرعان ما غفي قليلاً ، وجلست الممرضة ترمقه وتنظر إليه بلا خوف وتتأمل ملامحه الهادئة تأمل العاشقة والمحبة... تضحك قليلاً مبتدئة بابتسامة ظاهرة حتى يملئ الضحك شدقيها على حالها وحال قلبها ، فالقلب مشغول والعقل منقول... والقلب مشغول بمن هو ليس أهل به ، فالحبيب صلاح الذي أعطته القلب والعقل وأمضت معه أسعد النزهات والساعات ، في جو ساحر

جميل ، بعيد عن التملق ويحيط به جو الحب والسعادة والأمل.. نعم الأمـل فـي زواج قريب وجمع شمل لتكوين الأسرة الجديدة بالهناء.

كاد لا يعرف سوى أنها "هديه" حبيبته وهى لا تعرف سـوى "صـلاح" أنـه حبيبها ، وحدثت المفاجأة... كانت عائدة من المستشفي مـع زملائهـا بـالزي الأبيض الملائكي، وما أن شاهدها وشاهدته حتى هرب ... لماذا؟!

عرفت بعد ذلك أنه هرب عندما عرف أنها ممرضـة وتعمـل فـي القـوات المسلحة..

ــ "نعم إنه يحبها"!!..

كما قال لها في آخر مقابلة منهيًا علاقته بها ، ومع ذلك :

ــ "ولكنه لا يستطيع أن يربط حياته بحياة واحدة لا تملـك وقتهـا، القـوات المسلحة تُسيرها كما تريد"،..

وطار عقلها لينقل لها صورة الحرية خارج العمل في القوات المسلحة، وطار ولم يعد إلا بعودة المعارك ، عاد من أجل الحرية والمستقبل ، فالجميع يحـسدون ويحتقرون ... كيف يحدث هذا ؟؟!! .. لا تعرف! ، فالعقل منقول إلـى حيـث لا تدرى هي ولا تستطيع اللحاق به.

تأملت سقف العنبر ، وأخذت تفتش بعينيها في سطحه الهرمي المثلث المبنى بالكمر الحديد المغطى بالصاج المتين ، والـذي بنـاه الإنجليـز علـى الطريقـة الأوروبية لعله يحميهم من الثلج... نعم... من الثلج الذي يتساقط في أوربا بـلا هوادة ليل نهار ، فقد اعتقدوا أن الثلوج والبرودة ستلاحقهم حتى فـي مـأمنهم المعتدل في مصر.

فتشت بعينيها علها تجد صورة حبيبها "صلاح" أو مكانه ، واهتزت الـصورة أمام عينيها :

ــ "صلاح" أمامها يا للهول!..!

ــ صورته مهتزة ولكن أين عنوانه؟! ، حتى تشرح له أن القوات المـسلحة المصرية التي تشكل حاجزاً بينه وبينها ، فمن إذن يعالج المصابين والمقـاتلين؟!

، ومن يسهر على رعايتهم وهم الذين قد مكثوا السنوات ولم يملأ النوم جفونهم سهرًا لحراستنا؟! أنتركهم يموتون وهم يدافعون عنا ولا نبادر بإسعافهم؟!.. يــا للهول !!!

وصاحت وهي تحادث نفسها عن أمانيها :

ــ لا بد أن يتغير مفهوم عمل المرأة المصرية في القــوات المــسلحة عنــد "صلاح" وغير صلاح ، لأن المرأة المصرية عندما تخرج للعمل سواء في الجيش أو المصنع أو الإدارة ، فإنها تمارس دورًا هامًا مثل تلك التي تعمل فــي الحقــل بجانب زوجها، هذه تساعد المجتمع على النهوض من عثرته ، وتلــك تــساعده على الحياة الكريمة والتقدم والنمو والرخاء ، ولا تختلف الصورة من الحقل عن المصنع والملجأ والمصلحة الحكومية ، فهل سمع أحد فــي مــصر أن فلاحًــا لا تساعده زوجته في أعمال حقله؟! أظن أنها في الأساطير !!...

وهنا ابتسمت ابتسامة رضا وطمأنينة ، وبعدها تذكرت كلمات قرأتها للأســتاذ حافظ نجيب :

ــ "العالم نصفان : رجل وامرأة ، فإذا أغفلنا العناية بالمرأة أغفلنــا شــططًا نصف العالم وهذا لعمري حماقة وسفه".

ثم عادت لتضحك من جديد ، وهي تقول وتتمنى :

ــ سيعود الحبيب حتمًا ، وسيعرف أنه بعــد انتــصارات رمــضان وتــضافر الجيش مع الشعب : أن من يعمل في الخدمة المدنية كمثيله في الخدمة العسكرية ، الكل يعمل من أجل الرخاء والتقدم والمستقبل.. نعم سيعود "صلاح" ولكن أيــن هو؟... ماذا؟! ، إنه من المؤكد أنه هناك على خط النار ، نعم إنــه خــرج مــن القوات المسلحة على ذمة الاحتياط بعد انتهاء مدة تجنيده الإلزامية ، فلا بد أنــه هناك يحارب ويضحي بدمه من أجلى ومن أجل أسرته الحالية والمستقبلية...

واستراح قلبها وهي تزفر زفرة طويلة :

ــ يا لها من سعادة !! ، كيف أنسى هذا وهو الــذي ظــل بطــلاً فــي أيــام الاستنزاف، وكان يحكي ويحكي عن بطولات الجنود على الجبهة..

لقد حكى لها هذه القصة التي بدأت عندما رأى من خلال منظاره في نقطة المراقبة، موشى ديان شخصيًا يزور إحدى القواعد الأمامية ، وكانت هناك مجموعة من المصريين تعمل في الأرض المحتلة ، فأسرع يبلغ السلطات المصرية ، وعلى إثر ذلك قفز في القناة إلى زملائه الذين يعملون في داخل سيناء المصرية ، واتخذوا كمائنهم في مواجهة نزوله حتى يقضوا عليه ، وعلى لفيف الضباط الذين معه ، وأطلقوا النار دفعة واحدة ، فقتل من قتل من جنود العدو، بينما أصيب الآخرون ، وذهبوا يبحثون عن موشى ديان فلم يجدونه... إنهم يحاصرون المكان تمامًا ، ومع ذلك لا يجدونه!! كيف اختفى أو كيف هرب؟! .. لا يدرى ، وكأن الأرض انشقت لتبلعه.. يومها عاد ومعهم خمسة من جنود العدو المصابين أسرى حرب ، ولا يدري ما الذي دفع زملاءه إلى اصطحاب أُذن وأَلسنة القتلى الإسرائيليين ، وبعد جهد وصلوا إلى الضفة الغربية للقناة ، والكل معه الدليل على نجاح العملية : ألسنة الإسرائيليين وآذانهم بالعشرات والأسرى الخمسة ، وأخيرًا كان الدليل الكبير على أن العملية أحدثت ضجة كبيرة لدى قادة العدو... طائرات الفانتوم تدك المكان الذي حدثت فيه المعركة دكًا ، وطائرات الهليوكوبتر تحوم حول المكان لتبحث عن أي أثر لهؤلاء الأبطال ، وقوات الكوماندوز كلَّت من التعب للبحث عن جنود العملية التي كادت أن تطيح بالزعيم الإسرائيلي الكبير، وهم يبحثون كان يقف على الضفة الغربية حبيبها صلاح ومنظاره في يده يراقب ما يفعلونه ، ويقول كأنه يناجيهم:

ـ اليوم عبرنا ورجعنا ولكن في الغد سنعبر وسنحرر أرضنا الغالية وسنجلس فيها مدى حياتنا وسيقيم أولادنا فيها ليعيدوا إليها الحياة!!

وعند هذه اللحظة سقطت الدموع من عينيها .. دموع الثقة في بطولة صلاح .. بطولته في الحياة العسكرية الصعبة ، فكيف لا يكون إذاً بطلاً في العلاقات المدنية السهلة؟؟...

يا إلهي... كيف زالت تلك الغمة من على عينيها؟! ... تلك الغمة التي أخفت حقيقة وبطولة صلاح؟ ... كيف نست أنه بطل قبل أن يكون حبيبها؟ ، فالبطل

دائمًا يكون حبيب ناجح لا تجرى في عروقــه دم الخيانـــة ودم الهــروب عنــد المسئولية ، بل يكون ذهنه كبير وعقله أكبر، يقدم على حبيبتــه ليرضــيها فــي إخلاص ، لا يحب المماطلة ولا التسويف... إنه يفتدى حبيبته بروحه ، نعم تلــك هي صفات البطولة ، لا يوجد بطلاً عسكريًا لم يكن بطلاً مدنيًا أيضًا.

غمرت السعادة وجنتا هدية ، وبدت كعروس يوم زفافها .. أنيقــة وجميلــة وفرحة، تمنت لو شاركها سعادتها ذلك المصاب النائم !! ، وما ذنبه هــو فكفــي عليه ألام الإصابة ، وهى التي أعطته حقنة الكالسيوم كي يشعر ببعض الراحــة ، أو على أقل تقدير لا يشعر ببعض الألم ، وذهبت إلى سريره وجلست عند حافتــه ، وشعرت لأول مرة أنها تجلس بجانب صلاح الحبيب الأول والأخيــر، شــعرت كأنها تجلس بجانب صلاح في ميدان التحرير أو وهى قابعة بجواره وهو يجــدف ويجدف في عرض النيل في نزهة نيلية سعيدة ترفرف عليهمــا شــمس الأمــل ويحرقهما لهيب السعادة وتحاصرهما شظايا خطورة التقارب أكثر من ذلك..

شعرت أنها جالسة بجواره على مصطبة في الكــورنيش ، وهمــا يحــاولان التهام أكبر كمية من الترمس وأحيانًا اللب والفول السوداني ، ولم لا ..؟! ، فهذا بطل والحبيب بطلاً ، هذا حبيب وذاك حبيب ، فــالعرق واحــد والهــدف واحــد والدماء واحدة ، ولذلك فهي تشعر وكأنها جالسة بجانب "صلاح" فــي العــراء أو في بطن الصحراء... شعرت دائمًا بالقوة الخفية التي تجــذبها نحــوه... القــوة الظاهرة المتمثلة في بطولاته الفذة وصلاته الواسعة ، بــل فــي قوتــه الباطنــة المتمثلة في الشخصية القوية التي إذا تكلمت ، تكلمت بالحق والقرائن ، وتعطــى الدليل والدليل على كل كلمة تقال ، حتى ينساق المــستمع ويظــل منجــذبًا إلــى الحديث حتى انتهاء الموضوع...

إنها تتذكر كيف شرح لها وجهة نظره عن الخنافس بين شباب ذلك العصر ، وكيف أقنعها بوجهة نظره ، بأنه يجب على شبابنا وعلى فتياتنا أن تكون قــدوة حسنة ، فهم يملكون المستقبل كله بالأمل والعمل.. نعم ..هناك عيوب في شــبابنا ، ولكن المزايا متوافرة والشباب في خير دائمًا... يا لها من كلمات رنانة ، كــان

عندما يتكلم تشعر أن الأرض هي التي تتكلم والسماء هي التي تأمرها بالصمت ، من فرط الحكمة التي كان يتحدث بها .. بل كانت تشعر بأن الطيـور تقـف فـي السماء تستمع لكلماته ، بل ذرات الهواء ـ هي الأخرى ـ تتسابق فـي سـرعة لتلحق ببعض كلماته لتظل حاملة لها!!!.

هكذا كانت الدنيا تشاركها سعادتها وتنتزع بعـض الفـرح لتحملـه معهـا ، لتشاركها الفرح والسرور ، وربما كانت لحكمة إلهية، لهذا فأنهـا قـد تكـون لا تحتمل سعادتها بمفردها فمنحها الله للدنيا لتسحب منها بعض سعادتها ، حتـى لا ترحل بعيدًا عن حبيبها...

وبينما هي مستغرقة في تأملاتها ، سمعت أنين محبب إلى سمعها أن تعالجـه ، أن توقفه ، ولكنه أنين ذلك البطل الذي عاوده الألم ، وعاد إلى التألم ، مـن ذا الذي يستطيع أن يوقف آلام كل المصابين بل كل المتألمين، لا .. لن يوجد أبدًا.. فالفرحة إذا كانت موجودة هذه الساعة فتأكد أن الحزن سـيعقبها فـي السـاعة القادمة ، فالدنيا يوم لك ويوم عليك!!!...

وأمسكت من فورها اليد اليمنى للمـصاب محاولـة قيـاس نبـضه ودرجـة حرارته، واطمأنت بأن حالته عادية والحمد لله ، فحاولـت بعـد ذلـك أن تعيـد الابتسامة على وجهه للأمل بل للمستقبل ، فقد يكون "صلاح" محتاجًا لكلمات مثل هذه الآن.

أحضرت له الطعام ، وظلت تداعبه وتأكل أمامه ، حتى فتحت شهيته ، وطلب منها إطعامه ، وبدت أجنحة السعادة ترفرف على السرير ، فالإنسانة هـي التـي طبعت قبلة الأمل على جبين شخص "صلاح" متمثلـة فـي المـصاب ، وسـعادة الإنسان الذي رأى الأمل والحب بعد أن اعتقد أنهما وليا وجههما وابتعدا عنه بعد إصابته ، فإذا به يجدهما يقتربان ويقتربان حتى كـادا أن يلتـصقا بـه ، فمـن الطبيعي أن يصحبا جزءا منه .. من ذاته ومن جسده ومن روحه... بل وارتفعت حرارة الجلسة حتى تحولت السعادة البادية على وجهيهمـا إلـى ابتـسامة ثـم

ابتسامات فضحكات صادرة من قلوب ملئها الحزن وامتلأت بالآلام بعـد تفحمهـا بالأوهام...

وفجأة... سمعت أصوات قادمة من الخارج فتنبهت وقامت "هدية" لترى مـن القادم فإذا به مريض آخر محمولاً على عربة نقل مصابين والدكتور يقول:

ــ آنسة "هدية" مريض جديد بالعنبر "صلاح علم الدين"

ــ حبيبي!!!!

***      ***      ***

# الفصل العاشر

ارتدت هانم ملابسها البيضاء الملائكية ، بعــد أن أخــذت غفــوة قــصيرة ، استردت فيها نشاطها وحيويتها ، بعد عمل متواصل ثلاثــة أيــام فــي القــاهرة ويومين في الإسماعيلية، ولم تكد تمضى في غفوتها هذه إلا ســاعات ثــلاث ، وأمضت البقية الباقية في تذكر ما ألمح إليه الدكتور كامــل "نحوهــا بالحــب " ، صحيح أننا جميعًا أحباب ، ولكن كانت كلماته ذات معنى ومغزى ، لأنها شــعرت ورأت أن الدكتور كامل لم يلفظها من لسانه بل نطقها قلبه وكشف عن أسراره ، بعد أن حاول كتمانه كثيرًا.

وفكرت وتذكرت أشقائها الثلاثة.. أين هم الآن؟!.. وتنهدت قائلة :

ـ وكيف حالك يا أحمد.. يا عصام.. يا عمر؟! ... بالطبع أتمنى أن تكونــوا على ما يرام ، لأنكم أحبائي ، لا أشك في إخلاصهم فــي الحــب لــي ... أيــن دعاباتك يا عمر؟.. يا من خلقك الله بلسان طويل ، تحول قلب محدثك إلى مسرح للسعادة ونبع للأمل، وخلقك بقلب كبير تحب وتكن فيه الحب لأشقائك وأصــدقائك ، فلم أسمع أبدًا أن أحدًا من الناس قد غضب منك لأنك تعامــل الجميــع بالحــب وبالإخاء ، فنادرًا ما نجد أمثالك من الشهامة والبطولة.. كيف حال موسيقاك يــا أحمد؟ ...هل خطرت على بالك سيمفونية أو قطعة موسيقية رائعة تحيى بها حفل الانتصار في أول يوم يجمع فيه الله شمل الأسرة؟ ، وأنت يا عصام كيــف حــال قلمك الآن؟ .. وهل تحولت من القصة إلى الشعر تحت تأثير ضــجيج المــصانع وأنت تشاهد البطولة والأبطال؟...

ثم توقفت قليلاً لتنادي والدها :

ـ وأين أنت يا والدي العزيز؟... كيف حالك؟... وماذا تفعل الآن؟!... أعتقد أنك الآن تؤلف كتابًا عن الصهيونية ، فهذه هي طباعك وعادتك ودورك الــوطني ، ولكن أرجو أن تكون قد تركت الكتابة إلى حين حتى تؤدى عملاً سريعًا نحتاجه الآن... هناك الأعمال في الدفاع المدني ، والتبرع بالدم ، خــصوصًا وأن العــدو الغادر قد شن هجومًا على قرية آمنة بجــواركم ... هنــا فــي الإســماعيلية لا

يستطيع العدو الاقتراب ، ولذا يَفِر فِرَار الجبان دائمًا ، حتى عندكم في الداخل لا يستطيع أن يصيب أهدافه بدقة ، لأنه يريد الهرب بسرعة خوفًا من فوهات مدافعنا ومن أفواه رجالنا ونساءنا بل وأطفالنا ، الذين يقابلون النيران بأجسادهم فداءًا للكرامة وللحياة الآمنة المطمئنة ، في المستقبل القريب إن شاء الله.

ثم شدَّها تفكيرها مرة أخرى للدكتور كامل ، فتنهدت قائلة :

ــ أما أنت يا دكتور كامل ... يا من عرفتني منذ ساعات لا تزيد عن الأربعين ، يا من صارحتني عينيك بحبك وتقديرك ، فأنا لا أعرفك حتى أُحبك حب العاشقين ، في وقت لا مكان فيها لشعر الغزل ، فأنت ستكبر في نظري وتنمو في قلبي إذا أيقنت أن العمل الدائب هو شعر الغزل لي الآن ، في هذا الوقت ، فبالحب نبني ونحارب ، ولذا فالجميع أحباء ، أما عن مقابلة حُبك لي ، فستزيد قوة في نظري وقلبي إذا أنقذت الرجال والأبطال من الموت ليقابلوا أحبابهم مرة أخرى... ستصبح ملكاً أخضع له في مملكة الحب العظيمة! ، ولكن... فأنا أشعر بأن الدكتور كامل إنسان وبطل ، شعر بعد بداية الحرب بساعات أن مكانه الحقيقي هو في جبهة القتال ، فذهب متطوعًا ، ورفض أن يمكث في إحدى مستشفيات القاهرة العسكرية ، وصمم على أن يعمل في مستشفى ميداني ليواصل البطولة بجانب زملاء السلاح ، يقونه من طلقات الرصاص ، ويدافع عنهم من هجوم الجراثيم ونزيف الدماء... إنه يؤمن بأن المعركة معركة أمة بأسرها لا معركة جيش... إنها معركة شعب مصر والشعب العربي ضد قوى الاحتلال.

إنه إذن حبيبي عندما تنتهي المعارك وتأخذ جروح الأبطال طريقها للشفاء العاجل بإذن الله ...

وسارت هانم بعد راحتها القصيرة وقيامها بمناجاتها لأخواتها ووالدها والدكتور كامل الذي اقتحم حياتها ، متوجهة إلى المستشفي ، التي تبعد مسافة لا تزيد عن مائتي متر ، سارت بخطى ثابتة تنظر إلى الأمام في لهفة ، وتنتظر أن يقابلها في كل لحظة الدكتور التي شغل فكرها بعض الوقت... صحيح أنها لا

تعرفه جيدًا ، ولكنه يعرفها من بطولتها وهى تعرفه من بطولاته ، إن الحب الذي يجمعهما هو حب لكل من ضحى بنفسه من أجل البطولة والأبطال، الحب الذي يجمع قلبين تحابا تحت تأثير الرصاص وزئير الطائرات، لا يمكن أن يُطمس أو يموت حتى إذا وقفت نبضات إحداهما ، فإن القلب الآخر يظل يذكره وينبض له ومن أجله.

طاف خيالها بذكرى "سهير" الخطيبة الرسمية لشقيقها "عمر" ، تلك الفتاة التي دخلت قلب الشقيق من أوسع أبوابه... دخلته في ملحمة بطولية ليست تحت دوى القنابل ، بل تحت عجلات القطار... فسهير تلك الفتاة الصغيرة التي تكد وتعمل في القاهرة من أجل أن تقف في وجه حياة لا ترحم أحدًا ولا تعطى من يطلب بغير العرق... مؤهلها متوسط وتعمل في ديوان وزارة بالقاهرة ، لمسات الزمن على جبينها ، ولكن جمالها يطغى على كل ذلك... ذات يوم وشقيقها عمر عائد من القاهرة في قطار الثانية والثلث عصراً ، وقف طابور طويل يريد النزول في محطة طوخ ، وكان عمر قرب نهاية الطابور داخل القطار ، وعندما وصل إلى الباب بعد أن وقف القطار فوجئ بتحرك القطار ، وفي لحظة بطولة عنده فضل الفتاتين على نفسه في سرعة النزول، ونزلت سهير والفتاة الثانية ، وكان القطار قد أسرع فحاول عمر النزول ، ولكن قدماه انزلقت وكاد يسقط بين القطار والرصيف ، ولكن أسرعت سهير في لحظة بطولية دون الأخرى في جذبه وتهدئته ، حتى عاد إلى صوابه ، وبعدها تقابلت النظرات ، ثم تشابكت الأيدي لتجنى ثمرة البطولة.. ثمرة التضحية... وبدأ الحب الخالد العظيم... هل ستكون قصة الحب مع الدكتور كامل مثل قصة حب أخيها... إنها تتمنى ذلك!!!.. وكانت قد وصلت إلى باب المستشفي ، فدخلته على عجل ، وسألت عن الدكتور كامل فلم تجده قد حضر بعد ، فأزاحته عن عقلها وقلبها ، وبدأت تعمل لتواصل المشوار الطويل، مشوار العمل من أجل النصر والعمل من أجل الحب والبناء والمستقبل... عملت ولم تنظر إلى الأمام ولا إلى الخلف ، بل نظرت وتأملت تلك الأجساد البشرية القابعة أمامها تَئِّن أنين الأبطال... كادت أن تنسى تمامًا أن

هناك شخصًا قد دخل قلبها منذ ساعات... وتناست أن هناك والد ينتظرها... وأن هناك أشقاءً تحبهم... تذكرت أنها تعمل وتعمل من أجل الوطن ومصر... فقط...

وكانت سعادتها الحقيقية أن تخفف وطأة الألم من على جبين هـذا أو ذاك... سعادتها في أن تنقلب الآلام إلى ابتسامات ، أن تتحول النظرة التشاؤمية إلى نظرة تفاؤل وأمل في غد مشرق بالآمال... وانتصرت إرادتها وتحولت معاني اليأس في نفوس المصابين إلى أمل في الشفاء... ونجحت في أحلامها... كل المصابين كانت دموعهم تنزل وهى تودعهم آملة في شفاء عاجل لهم وعودة مرة أخرى إلى جبهة القتال... وكل يوم، بل كل ساعة يخرج من هؤلاء الذي يخرج عائدًا إلى الشرق أو متوجهًا لتكملة العلاج في الغرب ، مئات ومئات ، ومع ذلك احتفظت بحنانها نحو الجميع. كانت القائدة والآمرة والمطيعة ومثال الدقة في العمل ، فإذا تكلمت .. تكلمت بثقة وبحنان إلى جميع أشقائها وأحبابها .. وهى توقن أنها ما أتت هنا إلا من أجل إعطاء الحب والأمل للجميع ، وكانت سعيدة... سعيدة ، إلى درجة لم تدرك معها مدى هذه السعادة ... حتى عندما عاد الدكتور "كامل" لم تعطه سوى ابتسامات سريعة كالتي تمنحها للمرضى، ابتسامات سريعة لا تشغلها عن عملها وحنينها... أثنى عليها كل من في المستشفي ، وأجمعوا على أن "هانم" ممرضة سعيدة في حياتها الخاصة ، وأنها من أسرة راقية مهذبة ، كما إنها جميلة ومتفانية في عملها ، تعطى العمل عقلها وقلبها... وهذا هو سر سعادتها...

وفي وسط غمرة العمل والكفاح ضد الجراثيم والمرض ، فوجئت "هانم" بإحدى العاملات تطلب منها الذهاب فورًا لمقابلة الدكتور "سيد" مدير المستشفي ، وبعد وقت ليس بالقصير انتهزت الفرصة ، وذهبت بسرعة للمدير ، الذي سرعان ما قابلها ببشاشة مطلقة ، وأخذها من يدها وأجلسها بجانبه على الأريكة ، وربت على كتفها وهنأها لحسن أدائها لعملها وتفانيها في خدمة المصابين ، ثم قال:

ـ لقد أرسلت لى اليوم الوحدة رقم ٩٩٩٧ بطلب إحضار ممرضة وطبيبة في الوحدة الميدانية بسيناء ، بعد أن أستشهد الطبيب والممرضة مساء أمـس؟! .. وبعد بحث وتنقيب لاختيار أصلح الممرضات سرعة ومهارة وقوة تحمل ، وجدت أنك أنت الممرضة المقصودة وأصلح من يقوم بهذه المهمة هناك... وقد اسـتقر رأيي على ذهاب الدكتور "كامل" معك إلى هناك... ما رأيك؟!

ـ ما هذا!! ..

تساءلت نفس هانم بين ضلوعها وهي تفكر وتفكر ، واستغرقت فـي الحلـم والتفكير :

ـ أنه القدر الذي يضحكني اليوم ويمنحني السعادة حتى يسلبني إياهـا غـدًا فلابد أن أثبت وجودي وأقف في وجه هذا القدر اللعين!!! ... هل حقًا سـيمنحني كل هذه السعادة... أنا وشقيقي وحبيبي نجتمع بعيدًا عـن عيـون النـاس فـي صحراء مترامية الأطراف... إنها الوحدة الموجودة فيها شقيقي عمر وسـيكون رفيقي الدكتور "كامل" .. فما أسعد اللحظات التي تكتمل فيها سـعادة الإنـسان... هل يتصور أحد أنني عندما تطوعت كممرضة لخدمة المـصابين فـي العمليـات الحربية أثناء القتال ، هل يتصور أحد أنني سأرى شقيقي وهو يعطى العدو حقـه من النيران ويدحر جنوده... وأجد الحبيب الذي طالما انتظرته طويلاً أبحث عنـه بين شباب اليوم، شاب وسيم له مركز اجتماعي ممتاز وأيضًا مادي وذو أخـلاق رفيعة ، يضحي في سبيل الوطن ، فمن لا خير له في وطنه لا خير فـي أسـرته وعند زوجته... فالبطولة التي تكون في ميدان القتال هي بطولة أيضًا في المنزل والشارع والعلاقات الإنسانية...

ابتسمت بعد شرود عقلها وقلبها ، ونطقت بلسانها لتقول لمـدير المستـشفى الميداني:

ـ إنني على استعداد يا دكتور لأخدم الوطن في أي مكان وزمان ، ويسعدني أن أخدم تحت النيران ، وحتى الدكتور "كامل" فهو مثال الطبيب الممتـاز عمـلاً وأخلاقًا...

ـ إذًا اتفقنا ، جهزي نفسك ، بعد نصف ساعة ستكون عربة الشئون الإدارية للوحدة موجودة لتأخذك والدكتور كامل إلى الوحدة المقصودة ..

ـ على بركة الله وسنكون في الصورة ومحل الثقة إن شاء الله..

وطارت بها الأرض .. ترى كم ستبلغ سعادتها؟! ، ومتى تنتهي هذه السعادة؟ ، وهل حقًا ستكون سعادة بلا نهاية؟! .. وماذا سيفعل شقيقها؟! .. هل سيفرح عندما يراها؟، طبعًا وبلا شك ، ولكن ما مقدار هذه السعادة؟! .. هل سيلومها لتواجدها بعيدًا عن المنزل ، وذهابها لتكون تحت النيران؟.. أم سيبارك عملها... عندما تقص عليه قصتها : هل ستجتاحه السعادة والسرور ؟ ، أم سيتجهم وجهه ويلعن الحب من أول نظرة؟! .. عمومًا فإن سعادتها الآن ، تعطيها بشارة وتمنحها إشارة ، بأنها ستكون سعيدة اليوم وغدًا وبعد الغد ، فالسعادة المؤقتة ليست بسعادة ، بل هي ضحكة من ضحكات القدر علينا...

ونزلت السلالم بخطى سريعة راغبة في معرفة ما تخفيه الأقدار من وصايا وأسرار بسرعة ، آملة في رؤية شقيقها ، متلهفة على الانفراد بحبها ، علها تعرف عنه الكثير والكثير عن قرب ويقين ، ويهدأ عقلها من كثرة التفكير في الحب والسعادة، وها هي ذا تجد العالم يرقص حولها... نزلت بسرعة ، وقابلها الدكتور "كامل" ، ففرت منه بخفة ورشاقة حتى يزداد لهيبه ، فما هي إلا لحظات وسيعرف هذا الخبر السعيد الذي سيزيده نضارة وحيوية... هربت منه مسرعة حتى يزداد أمله وشوقه... ذهبت لتعد حقيبة ملابسها التي ما برحت أن تفتحها... لقد فتحتها لمدة ساعات حين ذهبت للراحة ، ولكنها على أي حال لن تتعب في إعدادها ، وتصورت مدى سعادتها وهى تشارك قوافل العابرين نحو النصر والمستقبل... فالعبور منظر رائع ومثير جدًا ، إنها سمعت من الإذاعة ما يدفعها للمشاركة فيه ، إنها فرحة جزلة لأنها ستعبر اليوم إلى سيناء الحبيبة ... ستعبر ... ستعبر القناة .

أخذت حقيبة ملابسها بسرعة ، وعادت إلى المستشفي ، وجاءت السيارة ، فركبت وانتظرت اللحظات الثقيلة التي مرت... كانت ناظرة نحو باب المستشفي

ترمق الداخلين والخارجين على أمل أن ترى رفيق رحلتها الصغرى إلى العمـــل ، ورحلتها الكبرى إلى الحياة... فلم تجده... وذهبت بها الظنون : هل تكـــون قـــد أثارته بفرارها منه دون همس؟! .. أيكون الشك قد طغى على حبه لها في قلبـــه فعادت روح عدم اليقين إليه فاعتذر؟! .. أم يكون المـــدير قـــد رأى فيـــه عـــدم الصلاحية لخطأ ارتكبه في الدقائق الأخيرة فقـــرر عـــدم ذهابـــه؟!.. أم... أم أن الدكتور "كامل" قد انتابته موجه الخوف من الموت على أرض الصراع المباشـــر بين جنودنا ــ بل بين أسودنا ــ وفئران العـــدو؟! .. ولكـــن ذلـــك مـــستحيل ، فالدكتور "كامل" هو الذي قبل أن يعمل تحت النيران وكان في إمكانـــه أن يعمـــل مستريحًا في مستشفي قويسنا المركزي ، وعمل ببطولـــة لا يخـــاف المـــوت ولا القنابل ولا النيران ، بل يخاف يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون!! ... لا تصدق أن هذا يحدث من الدكتور "كامل"...

وظلت في أحلامها حتى أفاقت على صوت يقول:

ــ مفاجأة سارة جدًا... أليس كذلك!!

ــ بل هي حدثًا عاديًا أن نلتقي بمفردنا حتى نواصل البطولة!!!...

وتحركت السيارة متجهة نحو الشرق ولم يسمع أحد صوتًا إلا صوت الدبابات وتحرك الجنود ، والله أكبر تدوي في كل مكان ، مفعولها أكثر وقعًا وأشـــد نفعًـــا من القنابل والصواريخ... يا له من منظر تتذكره العقول في كل وقـــت وحـــين ، وسيحكى لكل البنات والبنين ، وقصص وحكايات لن تنـــسى علـــى مـــر الأيـــام والسنين...

اتجهت السيارة إلى أحد المعابر ... كانت هناك من المدرعات تنتظر العبور ، والطائرات تحوم وتدور ، وتحلق في السماء تحاول أن تـــدك المعـــابر ، ولكـــن تطيش الضربات في الماء ، والمعابر ثابتة شامخة ، لا تستطيع القنابـــل بفـــضل الرحمن أن تمسها ، واقفة صلدة كصلادة الأبطال ، والمياه هادئة بلا أمواج وبلا دماء ، كانت تعتقد أن العبور مستحيل ، فإذا هو أمامها شيء عـــادى تمامًـــا... كانت تفكر كيف سيقيم سلاح المهندسين الكباري اللازمة للعبور ، فإذا بها تجـــد

كباري يمكنها أن تمكث على القناة سنوات وسنوات ، والقافلة تتحرك للعبـــور ، والسيارة تقترب من شط القناة ، وسوف تعبر بعد قليل ، ونرى الموقـــف الـــذي طالما حلمنا به وابتسمنا ، أملاً في قرب مجيئه ، وتعجز الكلمـــات عـــن وصـــف الفرح والسرور ، بل والسعادة التي تمخضت عنه قرب العبور !!!...

وبدأت السيارة تعبر القناة ، في فوج طويل ، ورأت هانم معجـــزة عالميـــة ، أوضحت معدن الشعب المصري الأصيل... وجدت "هانم" الكوبري عبـــارة عـــن لنشات في الماء تحمل أجزاء من الكوبري مستقطعات عرضـــية ، وإذا أصـــابت القنابل الكثيفة جزءًا من الكوبري ، جاء على الفور لنش احتياطي ، ودخل مكان اللنش المسحوب ، في سهولة ويسر ، وفي تنظيم رائع وتخطيط هندسي بارع ، ولذا يظل الكوبري صامدًا أمام الهجمات الهستيرية التي تُشَّن ضد هذا الكـــوبري والكباري المماثلة ، التي تحمل في طياتها معاني الخلود لمصر...

المنظر أنسى "هانم" من ذاكرة الدكتور "كامل" ، وأنسى الدكتور "كامـــل" مـــن ذاكرتها ... الكل يحاول أن ينال نصيب الأسد من الصفقة ، يحاول أن يملأ عينيه بهذا النور السماوي الساطع ، يحاول أن يملأ عقله بهذه الصور التـــي لا تمحـــى من المعجزات الخارقة ، التي سفهها الأعداء ولكن هـــا هـــي أمامنـــا تتـــساقط أقنعتهم... الأذن تسمع صدى المجاديف والنيران ، والله أكبر عالية رنانـــة لهـــا الفضل ، فكلمة الله هي العليا دائمًا وأبدًا..

يا إلهي !!! ... من روعة المنظر وجلال المطلع على سيناء الحبيبة ، وعلى رمال سيناء ، وعلى هواء سيناء ، فبعد عبـــور الكـــوبري ، تطلعـــت "هـــانم" أمامها .. فوجدت أرضًا شاسعة ، كلها دخان ونيران وسراب ورمال ، ورغم ذلك فهوائها منعش جميل.. يا لك من فخر يا ســـيناء !!!.. دنـــسك العـــدو بعاداتـــه الحقيرة ، ومشى على أرضك بأقدامه المتسخة ، بل وتنفس هواءك النقي برئتيه الحاقدتين على حريتنا وعروبتنا وإسلامنا... لقد امتلأت يداه بالدماء النقية التـــي احتوتها أرضك ، كتذكرة للمتناسين وكعبرة للمتغطرسين وكآية للمنافقين وكحكـــم للحاقدين ، ومع ذلك لم تدنس أرضك ولم يتلوث هواءك يا سيناء لأنـــك مباركـــة

في كل وقت وحين ، ولذلك بذلنا الجهد والعرق والدماء لتحريرك ... إنها ذكرى جميلة يوم الدفاع عنك يا سيناء...

ذهب خاطرها فور أن خطت عجلات السيارة خطواتها الأولى على رمال سيناء إلى والدها... الذي دحض الحجج الصهيونية التي تقول أن سيناء يهودية وليست عربية، لقد كلم موسى ربه من على قمة في سيناء .. ولكن .. كما يقول والدها :

ـ " سيناء المصرية كانت تستضيف موسى كما استضافت سيدنا إبراهيم الخليل وسيدنا يوسف ويعقوب والسيدة مريم والمسيح عليهم جميعًا السلام فهي مصرية قبل هؤلاء جميعًا وبعدهم" ...

ولكن من يريد الدم فهو يكون لدية صفة الغدر دائمًا، وأن والدها قد قدم مؤلفات عديدة في هذا الموضوع.... وإنها تقول الآن بعد أن شاهدت سيناء وهي تلفظ المعتدين المحتلين :

ـ سيناء مصرية وستبقى مصرية ، وهذه هي الدلائل والشهود الدلائل على أن سيناء مصرية .. إن السيارة التي تقلهما تسير فوق رمال سيناء آمنة راضية...

عادت من خواطرها بسرعة حتى لا يفوتها مشهد من المشاهد التاريخية، إن الساتر الترابي الذي بلغ ارتفاعه ثلاثين مترًا ، كان حاجز الوهم الذي ابتدعته إسرائيل حتى يخيف المصريين ، هذا الساتر قام أبطالنا المدنيون والعسكريون بحفر الثغرات فيه حتى تسير السيارات مطمئنة ، وكان الحفر ليس بأيديهم فقط بل بالماء !!!... بماء مصر الغالي ، فقوة اندفاع الماء كانت الوسيلة الوحيدة التي أقامت الثغرات في ذلك الساتر الرملي الضخم ، حتى الساتر الثاني الخلفي للساتر الأول كان كذلك هشًا وهشًا... رأت في كل مكان جنودًا بل أسوداً مصرية ، يقف هذا بجانب مدفعه ، وذاك بداخل مدرعته ، وهناك بجانب الدبابات وبداخلها ، وهنا بجانب السيارات المليئة بالذخيرة... جندي يحمل على كتفه الصواريخ المضادة للطائرات ، وآخر يحمل على كتفه (الأربجيه) المضاد

للدبابات... عالم ساحر .. لا تعرف من أين يبدأ؟؟ .. وإلى أين ينتهي ؟؟ ، بل هو تشكيلة رائعة للتحالف والاتحاد نحو النصر...

تقدمت السيارة بخطوات ثابتة نحو العمق السحيق لسيناء ، تقدمت وإذا بحصون بارليف تتراءى للعيان ، وقد امتطى جنودنا صهوتها ، وألقوا بغرور صانعيها إلى جوف سيناء... الحصون متينة فعلاً ولكن هشة في وجه الصلابة المصرية... صدق قول الله تعالى ( لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إلا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ)(الحشر: من الآية١٤) ، فإنهم لا يحاربون إلا من وراء جدر محصنة.. لم يبنو الحصون من عرقهم وأموالهم ، بل بنوها من دماء شعب مصر، القضبان الحديدية لخط السكك الحديدية التي كانت تصل مدينة الإسماعيلية بالعريش وغزة قد انتزعت ، وبَنى بها الإسرائيليون حصونهم القوية التي تراجع بارليف عن تسميتها باسمه... هنا ينفع التاريخ نفعًا كبيرًا ، فسيسجل التاريخ هذه النقاط على صدر صفحاته ، تعزيزًا للجيش المصري ، كما سجل دفاع ماجينو ودفاع روميل... كادت "هانم" تصيح :

ـ "يا رجال العالم استيقظوا.. الدعايات الضالة لإسرائيل أوصلتكم إلى هذا الطريق المسدود المليء بالمخاطر ، استيقظوا للدفاع عن الحق وحده ، فقد يجيء يوماً وتصبحون في موقف من يريد الحق مثلنا... قد تصابون بالظلم مثلنا... تعالوا هنا لتأخذوا العبر من الجنود المصريين... هذه طائرات الفانتوم تتهاوى مرحبة بالسقوط فداء للحق وردعًا للظلم... لقد ظلمنا رجال العالم ، ولكن لقد ظهر الحق أمامكم فيجب أن تصلحوا مواقفكم وتغيروا آراءكم!!!

والسيارة ما زالت تسير بسرعة متوسطة ، وهي تدخل إلى عمق سيناء السحيق، وسط الرمال والقنابل وأزيز الطائرات ، و"هانم" هنا أصبحت إنسانة أخرى ، ملؤها النشاط والحيوية والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله على رمال سيناء ، التي طالما شربت وارتوت من الدماء الذكية..

ـ حمدًا لله على السلامة. ـ شكرًا يا دفعة.

وهكذا وصلت هيئة المستشفي الجديد إلى مقر قيادة الوحدة رقم ٩٩٩٧ ، واستقبلت من قبل أحد القادة الميدانيين ، فالجميع مشغول بالحرب والدفاع عن المواقع المحررة من سيناء ، وهذا القائد أعطاهما من وقته بضعة دقائق حتى يريهم المكان الذي توجد فيه حجرة المستشفي الميداني الصغيرة ، في أحد المخابئ التي استولت عليها قواتنا من العدو.

وقبل أن يتقدما للاستراحة من عناء السفر قال لهما القائد:

ــ هناك بعض المصابين الذين لم يرحلوا بعد.. نرجو توقيع الكشف الفوري عليهم واتخاذ اللازم لأن بعضهم في حالة خطيرة.

وفي زمرة نشاطهما ، ذهبا حيث يرقد المصابين ، فهالهما ما وجداه من إصابات مختلفة ، نعم ، عدد المصابين كبير لأن الحرب قاسية مدمرة ، والرصاص والقنابل والصواريخ والنيران لا ترحم ، بل تحصد الأرواح وتجعل الدم ينزف ، ولكن النزف ضريبة تحرير الأرض والعرض ، فداءً للوطن وتحرير أرضه الغالية ، أسرعا للمصابين ، الدكتور في وادي والممرضة في وادي ، كُل يحاول أن يوقف الإصابات ونزف الدماء ، وقاما بإسعاف بعض أولئك الذين أعطوا الدم رخيصًا في سبيل الوطن ، وما لبثا أن كشف على البعض حتى جاءهم مصاب في حلقه بطلقة رصاص مباشرة...

فأسرع الدكتور كامل منادياً على ممرضته ، :

ــ يا آنسة "هانم" تسمحي ... هذا المصاب حالته خطيرة جدًا!!!.

ــ أخي عمر!! أخي...

ولكنه لم ينطق ، ولم يرد على أخته الوحيدة ، فلقد ذهبت روحه إلى بارئها الأعلى!!!.

***   ***   ***

# الفصل الحادي عشر

إحساس كئيب لدى "حمدي عز" بالوحدة المطلقة ، بـالرغم مـن أن حولـه مرضى يقبعون في السرير منصتين ، اثنان منهم لا شاغل لهما سوى النظر إليه صباحًا ومساءًا ، وحتى الطبيب الوحيد.. المزيف.. أصبح لا شاغل لـه سـوى المريض "حمدي" ، وكأنه الوحيد المريض في هذه المستـشفي... وبعـد شـفاء "حمدي" ، أصبح يهدد من حوله ، فهو يمكنه السير والحركة ، ولذا فقـد شـعر ثلاثتهم بالقلق العميق ، وبعث الضابط ببرقية لرئاسته يخبـرهم فيهـا بقلقـه ، وسرعان ما حمل الأثير الرد التالي:

– "لا بد أن يُرَحَّل فورًا إلى القاهرة"...

وظن الضابط أن المشكلة بسيطة ،فلا تعدو أن تكون مجرد الأمـر بـالقبض على الجاسوس وترحيله فورًا إلى النيابة العسكرية ، ولكنه فوجئ مفاجأة قويـة ،عندما رفضت هيئة المستشفي من إدارة وممرضات ترحيلـه إلا بعـد إذن مـن الدكتور "عادل"، وكادت أعصابه تفلت ، ولكن لا مفـر الكـل رافـض ، رافـض الخروج ، لأن المُصاب كان منذ عدة أيام في حياة أخرى وفي حالة حرجة ، فـلا بد أن يأخذ قسطه التام وحقه الكامل من الراحة الكاملة لمدة شهر علـى الأقـل، وعرفوا أنه مطلوب في المخابرات العسكرية..

وبعد تفكير كبير وتشاور مع الرئاسة ، أمر الضابط بوضع "حمدي عز" فـي حجرة مستقلة ومعه الحارسان ، اللذان ظهرا وشعر هو بمدى رقابتهما الصارمة له في أثناء نومه الكبير وألمه الخطير وحلمه العسير..

وما كادت الشمس تكشف عن بغيتها بحرارتها القوية المتقدة ، حتى أبـصر "حمدي عز" مجموعة من الزوار يدخلون الحجرة ، ويتلقون التحية العسكرية من الحارسان ، التحية تؤدى لهم بهمة ونشاط ، فأحس أنها لحظات قادمـة سـتحدد أينتهي إلى العار والجاسوسية من جديد ، أم يبدأ من المجد حيث تُبرأ ساحته .

تسمرت عيناه في سقف الحجرة الفاصل بين ناظريه والسماء الصافية .. ماذا يقول ليبرأ نفسه؟ ، لم يجد الهدوء نفعًا مع من سبقوا وحققـوا معـه ، ولكـن أيكون هادئًا في حديثه أم منفعلاً ؟! ، ولكنه مقتنعًا تمـام الاقتنـاع أن الانفعـال الشاذ غير مؤثر في المواقف الجادة ، فالهدوء يُمَكِّنْ من الأخذ والعطاء في الكلام ، ولذا قرر أن يكون هادئًا جدًا حتـى يُثْبِـتْ براءتـه ، وسـمعهم يتهامـسون ويتجادلون ، فأعطى أذنيه وعقله أجازه قصيرة حتى ينتهوا مما هم فيه ويبدءوا بما يريدون أن يفعلوه... تجاهلهم وتمنى لو تنزل صاعقة على حجرته بل علـى سريره حتى يستريح من طعنات الزمن ، بعد عمر طويل كـان مثـال الأخـلاق والوطنية، ماذا لو كان قد لقيَّ مصرعه مثل النقيب ومن كانوا معه؟! .. ألم يكـن قد استراح الآن ، فلا تحقيق في السماء ولا نيابة ، بل هو عدل رباني ، لأن الله عالم بكل الأسرار ومُطلع على كل الحقائق.

بدءوا في الحديث معه، قرر أن يكون صريحًا هادئًا راضيًا بقضاء الله وقـدره ، كانوا أربعة من رجال المخابرات ، وبعد جهد من اتزانه فقد عقله وظـل قلبـه يتحدث بنبضات حياته الطويلة ، كاشفهم بأدق الأسرار .. كيف توفيت زوجته بعد أن أنجبت له ثلاثة من الأبطال وبنت واحدة ؟! .. وكيف كـان قَـدَرُ الجميـع أن يشهدوا حرب رمضان الخالدة في الجبهة العسكرية معاً ؟! .. وكيف كان مقـدار سعادته بأن الله قد أعطاه من الأيام حتى يتمكن من الاسـتمتاع بهـذه اللحظـات الهنيئة من تاريخ شعب مصر؟! .. وكيف كان يستعد لإعداد مؤلـف كبيـر عـن الصهيونية وسيناء؟!! ، الصهيونية عبر التاريخ ، وتـدخل عقلـه فـي بعـض اللحظات ملقيًا اللوم والتبعية على الإعلام العربي في قصوره في التغلغـل داخـل عقول الأوربيين والعالم ، ونحن أصحاب الحق ، وظل يتحدث ويتناقش معهم مـا يقرب من الثلاث ساعات .. حتى سرق منهم اللُّب ، ودهشوا كيف تُبَث الـشكوك حول رجل له ثلاث أبناء يحاربون على خط النار ، بل وتأكدوا أن كل الأدلة التي بُنِيَتْ عليها اتهامه القاسي قد سقطت ، وكان وجههم هو المُعَبرْ الحقيقي عن كل

هذا ، وبعدها شدوا على يده وهم يودعونه ، بل أن واحد منهم تمنى له العـودة السريعة إلى منزله لانتظار أولاده الأبطال...

لم يشعر بأي حزن أو بأدنى خوف بعد هـذه المقابلـة ، فـإذا كـان يَهَـاب التحقيق، فلقد عرف الآن أن الأدلة غير صحيحة .. فلماذا الخـوف؟! .. شـعر لأول مرة في محنته ، منذ أن تم القبض عليه ، أن رجال المخـابرات المـصرية مثقفون وفاهمون ومتعلمون يحاربون ويرفضون الظلم ويعلنون الحق ، وليـست الصورة كما تصورها .. كرابيج وتعذيب حتى الاعتراف .. ولكنهم جادلوه بـالتي هي أحسن .. حتى دحض كل تصوراتهم التي أخذوها من الأدلـة التـي جُمِعَـتْ وسيقت بطريقة منظمة... تصور أن كل أحلام طفولته وشبابه وشـيخوخته قـد تحققت في هذه اللحظة ، لأنه إذا كان طعم الظلم مريرًا فإن طعم العدالة لا يحاذيه أي مذاق في العالم .. صحيح أن الظلم كاد أن يرميه قتيلاً وتصور الخبر في كـل الجرائد والمجلات... جاسوس يتسبب في مقتل خمسة أشخاص من بينهم أربعـة من رجال الشرطة وينتحر... كانت التهمة ثابتة عليه ، وكان .. وكان ... الـخ ، من كلمات الصحافة العشوائية..

ولكن لقد اقترب الحق منا واقتربنا منه ، وها هي ذا الأيام تمر قبل أن يعـود الأولاد ، أكون في منزلي هادئ البال... فكر وفكر .. هل يكتفي أن يـذكر لهـم فكرة عامة عن الموضوع؟! .. أم يقصه علـيهم بتفاصـيله ؟! .. أم أن يعتبـر الموضوع كأن لم يكن؟! ولكن على أية حال فلا أرجل للكـذب ، وحتـى تكـون الحقيقة مصباحًا بل منارًا لكشف الكذب والخديعة وما أدراك ما للحقيقة من تأثير كبير...

ظل هانئًا مستعدًا ، تتجمع أنوار السعادة في وجهه ، ويعبـث بأناملـه علـه يمسك بها فلا يتركها أبَدَ الدهر ، ولكنها تفر منه وتقف تناجيه أن يتركهـا حـرة فيرضخ ، فاليوم مضمون والغد مأمول... ومع ذلك ظل يفكـر فيمـا سيقاسـيه أولاده من مرارة لو علموا أن الشك كان موجهًا إلـى والـدهم وهـم يـدافعون ويدافعون ، ولكن هذا قدره وقدرهم.

وهكذا، أمضى يومًا ويومين حتى شعر أن نتيجة المقابلة الماضية قد أخفقت في مساعيها لتبرئته..

ولكنه ما لبث أن وجد آخرين يدخلون ويخرجون، يتحدثون إليه ويتحدث إليهم، يسألونه ويسألهم... كانت المقابلات تتسم بطابع الأخوة البعيد عن التحفظ ، ووصلت إلى التقدير أحياناً ، وذات يوم كاد قلبه أن يقف عندما سمع الطبيب ، الذي طالما زاره وكشف عليه بل وأعطاه الدواء ليخفف أنينه ويخفف مرضه ، يقول له:

ــ يا أستاذ "حمدي عز" إننا جلسنا نراقبك طول الأيام الماضية ولم نجد فيك سوى أخلاقًا حميدة ، وإيمان بالله شديد ، وثقة في النفس كبيرة ، وحب الوطن العزيز ، ولذا فإني أصارحك بحقيقة أمري ، أنا لست طبيبًا كما تظن ، أنا رائد في المخابرات العسكرية ، وكنت في مهمة رسمية ، ولكن لظروف إصابتك .. قررنا عدم مواجهتك حتى لا تُصْدَم ، وخشيت بعد أن عادت إليك الصحة أن تهرب وتنتكس حالتك الصحية، فجئت بك إلى هذه الحجرة المفردة ، وعملنا لك عدة كمائن حتى تهرب ، ولكنك كنت مؤمناً بالله وبنفسك وبالعدالة، وبإذن الله سأرسل تقريرًا طيبًا منى عنك ، وبإذن الله تعود إلى منزلك قريبًا عزيزًا مكرمًا...

ــ يا إلهي ما هذا الذي يحدث... الحمد لله...

ولم يحتمل حمدي عز هذه الكوارث التي جاءت من مدينة السعادة في الأيام المتعاقبة، فقرر أن يواصل هدوئه للنهاية ، وأيقن أن نهايته في هذه المشكلة قد اقتربت ، وأن العدل قد قرر أن يصنع للمشكلة نهاية... وظل متماسك الأعصاب، هادئ العقل والفؤاد حتى يأتي فرج الله القريب...

وسرعان ما استجاب الله للدعاء الخالص من الأبرياء ، وأنزل فرجه العظيم على حمدي عز ، فإذا هو يفاجئ في يوم الخامس والعشرين من أكتوبر المجيد ، بالدكتور "المزيف" والرائد المخابراتي الحقيقي ، يدخل عليه وعلى فمه ابتسامة كبيرة ، سعيدًا بما في جعبته من أخبار ، وهو يقول:

ــ مبروك... ألف مبروك يا أستاذ "حمدي".

ـ ما الذي حدث يا حضرة الرائد؟

ـ قررت الإدارة رفع الحراسة عنك وتبرئتك نهائيًا من التهمة التـــي كانـــت موجهة إليك ، وهي التعاون والتعامل مع الأعداء في زمن الحرب..

ـ الحمد لله.. الحمد لله ، أنا سعيد جدًا.. شكرًا يا حضرة الرائد..

ـ ولكن!! بصفتي دكتور لمدة تزيد عـــن الأســـبوعين آمـــر بوضـــعك فـــي المستشفي لتقضى فترة نقاهتك حتى استكمال الشفاء..

ـ سمعًا وطاعة يا دكتور.. قصدي يا رائد.. يا رائد يا دكتور..

وكانت سعادته فوق كل ما يتصوره البشر عن مفاهيم السعادة والهناء..

*** *** ***

# الفصل الثاني عشر

دموعها استمرت ما يقرب من خمس ساعات ، وهى جالسة تراقب حبيبها المسجى أمامها على الفراش ، وحتى انتهاء ورديتها أجبرت رئيسة الممرضات على استمرارها في عملها ، وظلت ، بل وظل قلبها يناجى الحبيب البطل الذي عرفته بطلاً وسوف تظل علاقتها بالبطل قوية كما كانت... لم تلبث أن تجلس حتى تذهب وتقيس درجة الحرارة وضغط الدم وتضع الكمادات الباردة ، ودموعها تتساقط من عيناها على حبيبها..

اهتمت به كل الاهتمام ، حتى كادت أن تنسى البطل المصاب الراقد في ركن العنبر، وظل حبيبها صامتًا لم يعد إلى وعيه ولم يعد وعيه إليه... كانت كلما اطمأنت عليه ، ثم على البطل الآخر تفكر... تفكر فيما سيحدث عندما يجد "صلاح" حبيبته بجانبه فجأة ، وهو الذي هجرها منذ شهر ونصف؟... ماذا سيفعل عندما يعرف أنها هي التي اعتنت به وسهرت لإنقاذ حياته وظلت بجانبه حتى تخفف حدة آلامه ويعود إلى كامل صحته وعنفوانه؟! .. ترى ماذا سيحدث له؟! .. هل سيتخلى وعيه عنه؟! ... أم تراه يسعد بل ويطير من الفرح؟! .. حقًا سوف تُنْبِئ الأيام القادمة عن هذه الحقائق الجلية التي سوف تتغير بها تفكير وحياة واحد من الذين يعيشون في هذه الحياة ، واحد طالما أحب وناضل... أحب البطولة والأبطال وناضل من أجلهم، من أجل أن ينعموا برخاء الحياة كما نعم بها كل الناس.

طار فكرها .. أيفرح حقًا لأن حبيبته بجانبه؟! .. أم سيغمر الحزن أوصاله .. ويتمنى لو يذهب المرض عنه ويطير بعيدًا عن وجهها؟! .. طاردت فكرت هروبه منها وانهمكت في عملها كممرضة أولاً ، ثم بدأت تلاطف وجه حبيبها .. وفجأة أفاق المصاب الآخر على آلامه ، وصرخ عدة صرخات ، انتفضت على إثرها "هدية" لتحاول تخفيف عنه بعض آلامه ، مع أنها تمنت لو كانت في مكانه كبطلة استقبلت الرصاص بصدرها حتى تنام على سرير بجانب حبيبها المصاب!!!...

قامت ووضعت له كمادات باردة ، حتى تنخفض درجة الحرارة ، وأحـــضرت له الطعام وأطعمته ، فهدأت آلامه قليلاً ، وذهبت عنه ليستريح هو ولتطمئن هي على "صلاح" الغائب عن الحياة على أمل العودة السريعة إليها، وتحسست جبينه وأخذت رأسه بين يديها وتاهت هي الأخرى في الأحلام حتى فوجئت به وقد ذهب عنه المرض ، وصاح ووجهه مبتسمًا في أحلام النشوة :

ــ هدية.. هدية حبيبتي!! .. أين أنت يا حبيبتي؟!

فقالت في لهفة حب حقيقية ، لأن الأحلام تحولت لواقع سعيد :

ــ أنا بجانبك يا صلاح.. حمدًا لله على سلامتك!! كيف تمت إصابتك؟..

فأفاق صلاح من غيبوبته وتحسس ما حوله وتأكد أن هدية بجانبــه ، ففــرح وبدأ يحكي قصته بنشوة وسعادة غريبة على حالته :

ــ الحكاية طويلة.. طويلة ، والبداية من ثاني يوم قطعت صلتي بك ، جاءني استدعاء بالذهاب فورًا لميدان القتال ، وذهبت إلى وحدتي العــسكرية ، وحــدثت تنقلات بين الوحدات حتى يسدل الستار وراء المراقبة الإســرائيلية ، وعبرنــا ، وبالطبع قد سمعت عن عملية العبور ، ولكنى أؤكد لك أن كل ما قيل عن العبــور لا يمثل سوى أقل من ذرة من معجزة العبور ، فهي معجــزة بكــل المقــاييس ، والعمل الجماعي الواضح تحت تكبير الله أكبر قد صنع ملحمة عظيمــة ، ســتظل نورًا للشعب المصري ، طول مئات الأعوام القادمة، عبرنا نحــن المــشاة فــي منطقة قريبة من منطقة البلاَّح ، وكان لأول مــرة تحمــل المــشاة الــصواريخ المضادة للدبابات والطائرات ، حتى كانت الصحراء محتوية على أسود مصريين، وبعد أربعة أيام من بدء المعركة والعدو في قمة يأسه وانهزامــه ، جــاء لــواء مدرع بأكمله بقيادة عساف ياجورى ، فجمعنا قائد وحدتنا.. فنحن مــشاة وهــم دبابات ، وعدد دبابات اللواء المدرع تناهز السبعين إن لم تزد ، وعنــدما ســألنا قائدنا عن أهداف دفع لواء كامل من قوات العدو في مخاطرة تهدد بفنــائهم دون حساب ، قال القائد:

ـ إن الهدف الحقيقي لهذه العملية لا يكمن في كونه مجرد معركة بين قوات إسرائيلية وقوات مصرية ، ولكنه هدف بعيد وبعيد عن ذلك.. إن اللواء المدرع الذي يقترب منا قد جاء ليخترق جيشنا ويعبر القناة ويصل إلى الضفة الغربية ، حتى يكون لهم قدر من النصر يفاخرون به مصر والعالم ، وخصوصًا وأن إعلامهم متسلط ويكاد يمتلك العالم كله.. وعلى ذلك نصحنا بل وأعطى أوامره لنا بعدم التصدي للواء المدرع الإسرائيلي ، وكدنا نجهز عليه ولكننا بعد ذلك ندمنا.. فقد كانت خطة قائدنا أن يوقع اللواء بأكمله في مصيدة محكمة أطرافها ، وأخذت المجموعات تحتل أماكنها في كمائن حول الطريق التي ستعبر منه الدبابات متوجهة إلى القناة حتى وصلت آخر دبابة إلى أول كمين ، عندئذ أطلق القائد إشارة البدء ، وبذلك انحصرت القوات الإسرائيلية ، وحصدت حصدًا ، فقام الكمين الأول والأخير بتدمير الدبابة الأولى والأخيرة ، وبذلك فقدت الدبابات حركتها وبدأت القذائف.. "الأربجيه".. تنهال عليها من الجانبين ومن بطن الجبل وتحول اللواء الإسرائيلي إلى ذعر ، ثم فحم أسود يملأ المكان ، ما عدا الدبابة الثانية في اللواء المدرع ، فقد أصبتها أنا شخصيًا بثلاث قذائف مباشرة ولم يمسسها تدمير كما كنت أتوقع ، وعرفنا أن هذه المدرعة هي دبابة قائد اللواء ، وجاءت مجموعة ممن قد أخذوا فرقة الصاعقة ، ودخلوا الدبابة ، وقفز عساف ياجورى من على دبابته وحاول الهروب ، بعد مفاجأته بالفحم الأسمر من حوله ، زاغ بصره وتشتت فكره ، وعندما قَبَضَتْ عليه قواتنا كانت الطعنة في قلب إسرائيل ، وأُصبت أنا عندما هاجمت مجموعة الصاعقة الدبابة وقفز هو منها ، كان يحمل مدفعًا رشاشًا ٧ مللي ، وأطلق على الجنود الموجودين أمامه المحاصرين لدبابته ، وكنت أنا المصاب الوحيد بجروح بسيطة والحمد لله.

ـ إنها قصة واقعية ممتازة حقًا... ولكن هل كان يائسًا يأس المهزومين؟!

ـ لا.. لا إنه كان في قمة غروره وكبريائه ، تصوري أنه حتى بعد القبض عليه تكلم وكأنه بطل زمانه ، يعنى تكلم من أنفه ، وعندما طلب منه القائد معرفة رتبته واسمه رفض ، ثم عاد واعترف بكل شيء ، وحتى أنه كان في

قمة صلافته وغروره بعد دقائق من أَسْرِهِ ،عندما أمر القائد بالمحافظة عليه أثناء ترحيله ، نظر لقائدنا .. وقال له بالعربية الفصيحة :

ــ قريبًا سنتقابل في تل أبيب!!!...

تصوري ... لقد كان يعتقد أن إسرائيل ستنتصر ، وكان يهدد القائد وكله ثقة عمياء في هذا الأمر !!! ...

وحكى لها كل ذكرياته .. كيف أنه كان نادمًا على مقاطعته إياها؟ ، وطمأنته أنه سليم والتسمم سيزول ، وعند المغرب من هذا اليوم السعيد عند هدية ، تفتحت ينابيع الحياة أمامها ، وسمعت عن وقف إطلاق النار على جبهة القتال ، فظهرت وعلى ثغرها ابتسامة باهتة!!

نعم إنها ابتسامة باهتة .. ترى هل تمكنت إسرائيل من السيطرة على الدفرسوار والقرى التي حولها؟! .. أم أنها مجرد عملية تلفزيونية كما كانت تريد وتخطط مثل عملية عساف ياجورى.. إنه العقل الإسرائيلي الأمريكي الذي يخطط للحرب ويخطط لوقف إطلاق النار... لقد تتابعت البيانات القليلة التي صدرت من قيادتنا الواعية عن الدبابات التي تسللت إلى الغرب في الدفرسوار وسرابيوم .. هل ستتحول العملية من عملية مواجهة بين جيشين إلى عملية حرب من عسكريين إلى مدنيين وقتل بالجملة... ولكن سيثبت الفلاح والعامل المصري بل والمرأة المصرية والطفل المصري في المنطقة أنه بطل كأخيه على خط النار.. سيضرب دبابات العدو ويقابل بصدره نيران مدافعه ، ولا يموت هلعًا من الفانتوم ، ولن يسلم أرضه إلا بموته..

هكذا كان المصري منذ قديم التاريخ ، والعصور من رمسيس حتى صلاح الدين والظاهر بيبرس حتى أبطال بور سعيد والسويس في أيام العدوان الثلاثي الذين قابلوا الجنود الإنجليز والفرنسيين بكل ما عندهم من عصى وأواني....الخ ، هكذا المصريين يسالمون ولا يستسلمون..

صحت من تأملاتها على صدى صرخات المريض الراقد بجانب حبيبها ، وقامت هديه على الفور لتخفف عنه آلامه.. نعم آلامه .. حتى تحولها إلى آمال

صريحة تتحقق خطوة بخطوة ، لأن آمال هذا المصاب أو ذاك لا بـــد أن تكـــون جزءًا من آمال الوطن العريضة.

ولذلك طمأنته على حاله ولم تتركه إلا بعد أن ابتسم سعيدًا..

ورجعت تشد من أزر حبيبها صلاح ، ليقاوم مرضه وإصابته ، حتى يصل هو الآخر إلى بر الأمان .. وخطر ببالها أن يطمئن قلبها .. هل يكون مُكْرَّهًـــا علـــى حبها لأنها ممرضته؟! .. أم أنه يتكلم من قلبه ومن شعوره الحقيقي..؟! .. لا بد أن تعرف حقيقة شعوره ... ولكن .. وتسمرت أمام لكن : الواجب هو الواجب .. فلماذا الهواجس في مرحلة خطرة يمر بها صلاح ، إنه حبيب لأنه بطل دافع مـــن أجل شعب مصر ، فلابد أن نحبه؟! ...

وعندما رآها صلاح تاركة لأفكارها العنان .. أحس قلبه بتفكيرهـــا ، فأمـــسك يدها وقال لها بصوت حالم :

ـ هل ستقبلين الزواج منى وأنا بهذه العاهات ؟؟!!!!!!..

ـ ستكون عندئذ قد حققت لي أغلى أمنية في حياتي!!

***   ***   ***

# الفصل الثالث عشر

دخل "حمدي عز" الفيلا الخاصة التي يمتلكها في طوخ بخطوات ثابتة ، بعد طول غياب عنها استمر ما يقرب من خمسة وعشرين يومًا ، قضى معظمها في المستشفي ، ورأى فيها الهول كل الهول ، ولكنه بالصبر وبالإيمان بالله انتصر على المهالك ، وها هو ذا يعود إلى بيته سليمًا متعافٍ من كل الأخطار والأمراض ، بل ومتعاف من المخابرات أيضًا.. إنه اعتاد على سماع كل شيء عن المخابرات المصرية من تعذيب بالنار والكهرباء حتى الاعتراف ، ولكنه رأى شيئًا آخر رأى .. حُسن التحقيق ونزاهته ، لا تهمهم إلا الأدلة الواضحة فقط.. إنه يرى أمامه ما جرى في آخر يوم عندما صدرت الأوامر لرجال المخابرات المصرية بالعودة ، يومها ذرف الضابط الدموع وهو يودعه قائلاً:

ــ لقد حضرنا هنا لمراقبتك ، وتخرج اليوم وأنت بطلاً بريئًا ، فأتمنى أن نكون أصدقاء...

وتعانقا طويلاً طالبًا ومتمنيًا له سرعة تمام الشفاء..

هكذا مرت لحظات الوداع سريعة وتعانق مع الآخرين بحماس شديد ، الكل نادم على سوء الظن بالآخر وسعيد بصداقة الآخر.. حتى بعد أن رحل رجال المخابرات وتأكد حمدي عز من ذلك ، إذا بالطبيب يخبره بأن الضابط طلب منه قبل خروجه أن يرسل برقية له ، وفعلاً في آخر يوم له في المستشفي طلب منه إرسال البرقية ، وحضر الضابط وهنأه على خروجه سليمًا بريئًا والحمد لله ، وباركه على خطوته القادمة في الحياة وأخذه في سيارته إلى باب الفيلا ، ولما وصلا للفيلا عانقه طالبًا منه الصداقة الدائمة وعاهده على ذلك وودعه وداعًا حارًا..

ويبكي حمدي وهو يقول لنفسه :

ــ فما أسعد الأيام ..فيوم أن كادت قدماي تصل إلى حلبة المشنقة ، يوم أن تثبت براءتي !!!...

وتوجه إلى السماء بدموعه وقلبه طالبًا العفو والمغفرة إن كان قد أخطأ ، والسلامة لأولاده الثلاثة ووحيدته ـ التي ما برحت الفيلا حتى حدث له ما حدث ـ إنها ستظل ذكريات جميلة دائمة منطبعة في عقله وذاكرته... ولن ينساها... إنه في أشد الشوق لرؤية أولاده الذين دافعوا ودافعوا بأرواحهم في سبيل راحة مصر وشعب مصر... إنه يريد رؤية عمر وعصام وأحمد وهانم حبيبته ، وتساءل :

ـ هل يكمل له الله فرحته الكبرى التي بدأها بالبراءة ويعيد له ثلاثتهم أبطالاً معافين من المرض والإصابة... يعودون سالمين؟!...

ثم تذكر ابنته الوحيدة ، فتساءلت نفسه :

ـ ولكن أين أنت "هانم" ؟؟ .. هل أراك بخير بعيدًا عن السوء أم أنت الآن بعيدة عنى وعن الحياة ؟؟...

ثم اعتدل ليبعد وساوس الشيطان عن قلبه وهو يتمتم :

ـ لا... لا ... أنت بخير وبخير، ولكن في أي مكان تواصلين الحياة والعمل؟ ... هل في القاهرة أم في الإسكندرية أم على جبهة القتال؟.. في أي مكان ستظهر بطولتك ودأبك على إتمام المهمة من أجل النصر الكامل..

ثم بدأت تسيطر عليه روح التفاؤل :

ـ إنني لن أظل ساعات وسيجيء الفرج بإذن الله ، لقد توقف إطلاق النار منذ زمن بعيد ، أكثر من عشرة أيام ومن المؤكد أنهم الآن ينتظرون دورهم في الإجازة ويعودون... حتى أنت يا هانم فمهمتك ستتصل حتى تنطفيء آلام الأبطال... فمهمتك ستطول عن مهمتهم بقليل ، ولكن أنت عائدة لي ولهم، وستتحقق أحلامهم ويرونك أروع عروس على وادي النيل ، إنه لا بد أن يفعل شيئًا حتى يحضر القادمون... لا بد أن يواصل كتابته وأبحاثه حتى يقتل الوقت ، وعندما يرن الجرس سيعرف أن ثلاثتهم قد حضروا !!!..

وذهب إلى مكتبته التي لم يرها منذ زمن بعيد ، ودخل فوجدها تكاد أن تكون قد امتلأت بالعنكبوت والتراب والورق مترامي هنا وهناك ، لا بد من الصبر

لترتيب الكتب والعناية بها وتنظيف المكان من العنكبوت والتـــراب ، لابـــد مـــن العناية وتنظيم الحجرة تمهيدًا للبدء في عملية إعادة صياغة الحقـــائق والكتابـــة المنظمة... إنها عملية ضرورية لا بد لها من النهاية... لم ينتظـــر تـــأجير أحـــد العمال لنظافة مكتبته ومنزله ، خلع ملابسه وترك الراحلة قليلاً ، وفي دقائق كان قد انتهى من النظافة ، لـــيس فـــي حجـــرة المكتـــب وحـــدها بـــل فـــي الفـــيلا بأكملها ..."كنس ومسح" ، وجعلها لامعة فضفاضة.. كما كانت وكمـــا ســـتظل... عاد إليه النشاط من أجل عدم إشعار أولاده بحقيقة الموقف وكـــأن كـــل شـــيء طبيعي.. وعاد إلى الكتابة والتفكير، ولكنه قطع كلاهمـــا عنـــدما أحـــسن بـــأن الجرس قد بدأ يفيق من غفوته ، ودبت نسائم الأمل في أوصاله فشعر أنه يطيـــر وهو يسرع إلى الباب ، وفتحه ، وكانت "هانم" ... ولم تشعر إلا وهو معها وهـــم في الأحضان كحبيبين افترقا منذ سنوات ، وكان العناق الذي افتعله الـــشوق قـــد امتد لدقائق غير قليلة:

ــ يا حبيبتي يا هانم... مدة طويلة ولا ترسلي لنا شيء.. احكي لي وقـــصي عليَّ كيف بدأت وإلى أين انتهيتِ؟! .. قصي عليَّ رحلتك الطويلة الغائبة فيها عن والدك الذي أنفق العمر من أجلكِ.. وكيف حال معنويات الأبطال إخواننا بـــسرعة يا هانم ؟؟ ، لا تكتمي أكثر من ذلك قصي بسرعة..

ــ يا والدي.. إنني قد رأيت من الصعاب والأهوال ما لا يقدر علـــى تحملـــه إنسان.. بدأت رحلتي إلى القاهرة ، وانتهيت بها في الخطوط المتقدمـــة ، حتـــى رأيت من المهالك ما يقضى على أي إنسان... حتـــى أخـــذت ســـاعات للراحـــة وحضرت هنا لأراك..

وأخفت وجهها بيديها دلالة على الراحة التي ستشعر بها بعد تعبها الطويل ، وهذا ما ظهر لوالدها... ولكن الحقيقة أنها كانت تخفي وجهها بيديها .. هروبًـــا من كذبتها الكبرى .. أول كذبة ينطق بها لسانها ، والحقيقة أنها كانـــت منـــذ أن رأت شقيقها الأكبر يموت شهيدًا وهى معه لا تقدر أن ترى أكثر مـــن خطـــوات أمامها ، ولا تستطيع أن تقرر .. هل تخبر والـــدها بالحقيقـــة المفجعـــة وهـــى استشهاد ابنه الأكبر أم تنتظر.

وجدت أن لسانها ينزلق ويكذب ، حتى حقيقة الإجازة ، فهي قد انتهـــت مـــن تطوعها ، ولكن تريد أن تطمئن على حقيقة البطل المصاب بحروق في مستشفى

الحلمية العسكري بالقاهرة ، وهل هو شقيقها ، أم أن الحقيقة غير ذلك ، ولكن على أية حال قلبها يحدثها بذلك ، وحتى حبيبها كامل الذي وقف بجانبها في الساعات العصيبة يشد من أزرها ويخاطب وجدانها مواسيًا ومداعبًا أحيانًا ، حتى أفاقت من الصدمة العصيبة وعادت لحالتها الطبيعية... حتى حبيبها أخفت قصة حبها عن والدها لعل وعسى.... إن حبيبها كامل قد تواعد معها على الحضور في خلال عشرة أيام لخطبتها من والدها ولكن الحال غير مستقر ، ولا تدرى ماذا سيحدث عندما يعرف الوالد الطاعن العجوز أن أكبر أبنائه قد أستشهد والثاني قد أصيب في الحرب بجروح وحروق خطيرة ، أما الثالث وهو أصغر الأبناء أحمد فالله معه ، ولعله يكون بخير وبصحة جيدة.. إن القدر المكتوب عندما ينزل على أسرة تتحول حياتها جحيمًا لا يطاق وتتزلزل أركان المنزل بل ويتزلزل كيان كل من فيه ، حتى الخدم قد يصيبهم من كوارث الدهر ما لا يجدونه عند الآخرين..

فعلاً لقد رأت وأشقائها الأهوال ، وهي لا تدرى ماذا حدث لوالدهم فترة غيابها.. إنها متأكدة أنه رأى ما رأته وما رآه أشقاؤها من الموت المحقق ، وما وراءه... إنها بعد غفوة قصيرة ستذهب للقاهرة وتبحث عن ذلك المصاب الذي تشك في أنه شقيقها.. لقد كان محروقًا ولم تتعرف عليه ، وعله يكون أو لا يكون ، ولكن المؤكد أنه بطل وإنها لابد أن تطمئن ولم تدرك كم استغرقت غفوتها .. ساعة أم ثلاث ساعات أم عشرة .. المهم أنها عندما أفاقت من نومها وذهبت إلى الحمام وجدت النهار ينتصف ، وارتدت ملابسها على عجل ، وتوجهت دون أن ترى والدها إلى الباب ، ولكن استوقفها والدها بنداء:

ــ "هانم".. حبيبتي ونور عيني ، إلى أين أنت ذاهبة؟!!

فقالت بعد أن رجعت وقبلت يد والدها :

ــ إنني ذاهبة لأتمم إجراءات انتهاء تطوعي في القاهرة ، وسأعود لأنتظر معك أشقائي الأبطال ، سأعود سريعاً لأنني مشتاقة للحديث معك يا والدي ، يا أعظم الآباء وأحنهم على الأبناء ، سأترك لك العربون حتى أعود .. خذ هذه القبلة حتى أعود!!..

وزرفت عيناها الدموع ، وأحس الوالد بقلبه ينقبض .. من ماذا؟! لا يدرى:

ــ لماذا تبكين؟! ...

ــ إنها دموع الفرح على قربى منك يا والدي العزيز.. وقَبَّلَتْهُ وولت مدبرة...

وعلى محطة التاكسي في طوخ ، تعبت رقبتها من البحث يمينًا ويسارًا عن عصام عن أحمد.. عن كامل.. عن أي إنسان تعرفه ويعرفها .. فلا تجد .. أحست أنها وحيدة في الحياة ، وفي الكون وليس في محطة التاكسي !!.. ما أتعسها لحظات عندما يريد الإنسان أن يعرف كل شيء عن كل شيء في هذه الحياة ، ويفاجئ بعد التعب والمجهود الضخم أنه لم يعرف سوى شيء من عدة آلاف من الأشياء!!!...

وما أتعس اللحظات التي يشتد فيها الحنين لرؤية شخص بعينه ، وتفاجئ بالآلاف العديدة من الناس تقابلنا ولا نريد منهم فرد إلا المطلوب غير الموجود... ولكن هذه سُنَّةُ الكون ما نطلبه لا نجده وما نجده لا نحتاجه قد لا تكون سُنَّةُ الحياة كله ، ولكنها على الحياة ميزة لعصرنا هذا الذي نعيش فيه...

ركبت التاكسي وما خَلد ببالها أنها ركبت ، ووصلت إلى مستشفي الحلمية ووجدت الصعوبات في الدخول ، حتى أبرزت بطاقتها التي تدخل بها المستشفي العسكري ، ودخلت إلى عنبر ١٢ عنبر الحالات الخطيرة للحروق... ودخلت وبحثت عن عصام... عن أحمد ، فلم تجد منهما أحدًا ، وكانت الحالات قد خفت وطأتها وأصبح من السهل التعرف عليها ، ولكنها لم تجد أحدًا...

وبحثت في كشوف المرضى عن اسم أحمد أو عصام حمدي عز فلم تجد بين مرضى عنبر ١٢ شخصًا بهذا الاسم ، حاولت الاطمئنان وبحثت عن اسم أب ، فلم تجد مَنْ والده حمدي عز.. طار عقلها!! .. أيكون قد شفي من علاته وخرج سليمًا معافًا، وذهب لوحدته ، أو....! ، لكن هذا مستحيل لأنه كان في عنبر الحروق الخطيرة ، ولا يمكن رجوعه قبل شهرين أو ثلاثة!!

أيكون قد توفي!! .. ودُفِنَتْ جثته!! .. وهنا طار عقلها إلى عنان السماء :

ــ يا ربي : اثنان يستشهدان في المعركة... اللهم ما خفف الوطأة على الوالد العجوز!!...

وذهبت تبحث في الوفيات فلم تجد سوى أربعة أسماء فقط..

صعدت مرة ثانية إلى عنبر ١٢ علها تجد من يدلها علي المريض المقصود ، ولم تكن نتيجة البحث أحسن من المرة الأولى .. وعادت فذهبت لتسلم على من تركته في عنبر ٣ .. وقابلتها الممرضة "هدية" بالأحضان والعناق ، وشدتها هدية جاذبة لها من يدها وجلست لتقول:

ـ تصوري يا "هانم" يا أختي .. حبيبي الذي هجرني منذ شهرين ، قد عاد بطلاً مصابًا وسعيد جدًا بي بعد أن أخذ صورة ممتازة عن الممرضات والقوات المسلحة ، والآن انتقل من عنبر الغرغرينا .. عنبر العزل .. إلى هنا في عنبر ٣ ، وبعد قليل من الأيام سيعود سليمًا معافًا... تصوري كان يقترح أن يخطبني ، ويعقد قرانه عليَّ ونُزَفْ في ليلة واحدة ، عقبالك يا هانم ... وإنني سأكون سعيدة جدًا يا آنسة هانم لو تكرمت بإعطائي عنوانك حتى أرسل لك الدعوة لحضور حفل زفافي .. إن سعادتي ليست من أجل الزواج ولكن من أجل احترام صلاح لي ، فالصورة المنقولة له عنا نحن الممرضات صورة خاطئة ، وخصوصًا ممرضات القوات المسلحة ، وإن كان على حق فليس معه كل الحق.. صحيح أننا جنود في خدمة الوطن ويتحكم فينا الجيش كما يشاء ، ولكن لنا مميزات كثيرة والجيش يعاملنا كبشر وكإناث وهذا يكفي..

ـ ألف مبروك يا حبيبتي يا هدية.. هل تعرفين أحدًا خرج من عنبر ١٢ من المصابين..

ـ أنت تعرفين أن عنبر ١٢ بجانبنا ، وأعرف كل من كان فيه!! عصام مثلاً تماثل للشفاء وانتقل إلى عنبر ١٠ وكذا...

ـ عصام حمدي عز.. متأكدة!! ... أخي حبيبي!! ... أين أنت؟؟ !! ..هيا بنا إليه.. الحمد لله على كل حال...

*** *** ***

# الفصل الرابع عشر

بينما يجلس "حمدي عز" في حجرته الخاصة ، وقد انتابته موجة من الخــوف والقلق على مصير أولاده الثلاثــة ، يفكــر هــل يــذهب للبحــث عــنهم فــي المستشفيات .. أو في السجلات العسكرية .. أو في التوجيه المعنوي .. فــي أي مكان لابد أن يقوم بالبحث عنهم جميعاً !!!..

لقد أحس اليوم أنهم فعلاً سيستشهدون وسيصابون وقد يكونوا ممن يتألمون الآن .. ولكن.. ماذا هو فاعل بآلامهم؟ ، إذ أن هناك المئات ، بل الآلاف منهم ، ترعاهم القوات المسلحة صحيًا ومعنويًا حتــى يرتفعــوا عــن مــستوى الآلام ليبدعوا في تنفيذ آمالهم العظام...

وبينما هو في تفكيره هذا أبصرت أذناه رنين الجرس ، فعلاً إنه جرس الباب ، فَهَّبَ واقفًا ثم مهرولاً ومسرعًا نحو الباب ، وقد نسى ما فكر فيه منذ لحظات ، لأنه أحس بأن الطارق لا بد أن يكون أحد أولاده ، أو حتى على الأقل ابنته التــي غابت عن المنزل الليل كله ، وإذ به يفاجئ مفاجأة غير متوقعــة .. بأنــه أمــام الدكتور "عادل" وجهًا لوجه ومعه سيدة!

ــ الدكتورة "هناء" زوجتي العزيزة...

قدمها الدكتور عادل لحمدي عز ليبدد دهشته البادية على وجهــه ، وأكمــل قائلاً:

ــ أخذنا راحة اليوم من عناء العمل المتواصل ، وخصوصًا بعــد هــدوء آلام وجروح المصابين في مستشفي بنها ، فعزمنا على تقضية نهار اليــوم معــك... عندك مانع؟!...

ــ مرحبًا وألف مرحب بك وبزوجتك ، تبــارك منزلنــا بتــشريفي بالزيــارة الكريمة ، يا دكتور تفضل.. يا سعادتي ويــا هنــائي بهــذه الزيــارة الجميلــة والمفاجأة السعيدة !!!..

ودخل الدكتور وفي يده الدكتورة دخول الأبطال إلى الجنة وهمـا يتبـسمان ، من أجل ماذا؟! لا يدرى أحدهما !!! .. ولكن كانا في غاية الـسعادة حتـى بعـد جلوسهما.

ــ هل وصلتك الأخبار السارة من أو عن أولادك؟؟..

ــ أبدًا منذ خروجي من المستشفي أمس الأول .. وأنا أنتظر أيـة أخبـار .. حتى بدأ القلق يتسرب إلى نفسي ، خشية أن يكون قد وقع لهم مكروه ، ولكـن على أية حال فأنا مستريح البال والفؤاد لأنهم أبطال ، وأي شـيء سـيحدث أو حدث إنما هو قضاء الله ، وقضاء الله نافذ ، ولكن أرجو أن يطمأنني الله علـيهم جميعًا ، فإن زوال الشك أخف وطأة على النفس من ألف مصيبة فإن بقاء مصيبة واحدة قد لا تحدث مفعول أقل شك عند الناس!!..

ــ هذا قد يكون صحيحًا ، ولكن الحقيقة أن الشك إذ تحرك الإنـسان معتمـدًا عليه وحده دون أدلة معنوية ومادية قد تؤدى إلى مصيبة ذاتها... ولكن الشك قد يكون مضيعة للوقت ويكون لعلاج بعض حالات القلب والحنجـرة والأعـصاب ، حتى عندنا في الجروح .. عندما يشك الإنسان المـصاب أن جرحـه بـالخطورة الشديدة ، يلجأ إلى زيادة مضاعفة العلاج حتى يتم الشفاء ، ولا أحد ينكر حقيقـة سرعة الشفاء.. وعمومًا نطلب من الله سرعة طمأنتك عليهم جميعًا ، وإن شـاء الله خيرًا ، وعلى رأى المثل البلدي "إن عرف السبب بطـل العجـب" ، " وكـل تأخيرة وفيها خيرة ".. فلا شك ولا عجب إلا عند حضورهم وسؤالهم...

ــ هذا كل ما أريده من الله.. أن يبث الطمأنينة في قلبي... هل يـسمح لـي الدكتور وتسمح الدكتورة بتشريفي لزيارة المكتبة والإطلاع على ما فيها..

وقام الدكتور "عادل" والدكتورة هناء حرمه بزيارة المكتبة ، وقضوا فيها وقتًا ليس طويلاً فقط بل غاية في الطول ، وتفقدها الدكتور "عادل" كتابًا كتابًا ، لأنـه مولع بالقراءة منذ صغره ، وأخيرًا قال "حمدي عز":

ــ يشرفني يا دكتور "عادل" أن تقبل هذه المجموعة الصغيرة مـن الكتـب ، ثمانية كتب كلها مؤلفاتي وبحوثي التي كتبتها طيلة هذا العمر الطويل..

ـ شيء ممتاز جدًا وهدية في غاية القيمة ، ولذلك فهذا شرف لي شخصيًا يا أستاذ "حمدي" ...

وبينما هم في مناقشاتهم الأدبية والثقافية دق جرس الباب ، فأسرع "حمدي عز" بفتح الباب ، فوجد عامل التلغراف يقف أمامه ويعطيه تلغرافًا ، ولم يمكث سوى ثوان حتى فتحه وقرأ ما فيه :

ـ "والدي العزيز.. أرجوك احضر فورًا لمستشفي الحلمية العسكري ، فأنا هنا ولا تنزعج " التوقيع : ابنتك "هانم"..

فارتبك حمدي عز ولم يعرف ماذا يفعل ، فأسرع الدكتور عادل وقال له:

ـ الحمد لله السيارة موجودة ، ومن فضلك ارتدى ملابسك بسرعة..

وما هي إلا لحظات قليلة ، حتى كانت العربة سائرة على الطريق الزراعي مصر الإسكندرية ، في طريقها إلى القاهرة ، ووصلت العربة إلى المستشفي بعد ما يقل عن ساعة من وصول التلغراف لحمدي عز ، ودخل الجميع يبحثون عن "هانم" ، ودلتهم الممرضة "هدية" على مكانها ، فأسرعوا إليها ، فقابلتهم في حجرة الممرضات بعنبر ٣ وقالت لهم بعد السلام والترحاب :

ـ الحمد لله... هل أزعجتكم؟!.. لا تقلق يا والدي !!!... لا شيء يا والدي ، سوى إصابة أخي عصام بجروح بسيطة ، والحمد لله ، لقد اقترب من الشفاء التام ، وبعد أيام سيخرج عائدًا إلى المنزل ، ولكن أرجوك يا والدي تماسك ولا تحاول البكاء أمامه ، فإن ظروف الإصابة بأعلى درجة من الحساسية للتيارات التألمية ، وكفاه آلامًا من الإصابات التي لحقت به ..

ولكي تكسر حدة الصدمة ، قالت وهي واقفة :

ـ هيا بنا لنذهب إليه في عنبره .. ولكن أعتقد أنني لم أتعرف بالأستاذ وبالمدام.. أهم أصدقائك يا والدي؟

فقال الوالد باقتضاب وبسرعة حتى لا يضيع الوقت :

ـ الدكتور "عادل" وزوجته الدكتورة "هناء" يا ابنتي.. كان يعالجني وأنت غائبة..

ـ تشرفنا يا دكتور "عادل".. تشرفنا يا مدام .. هل صحة والدي على ما يرام يا دكتور؟!

ـ الحمد لله ، فليس بعد الحمد سوى كل خير ، فالحمد لله على كل حال..

وتوجهوا جميعًا إلى عنبر ١٠ ، وكان الجميع في صمت تام ، فالكل يحـــاول أن يخفي أنينه على زميله القابع في السرير المجاور ، فالجميع أبطال ورجـــال ، والرجال لا يتوجعون ولا يتألمون..

ـ هذا عصام يا والدي ، هل اطمأننت عليه ؟!..

قالتها هانم بنبرة الجد..

ـ حمدًا لله على سلامتك من الأذى يا ولدى... بالأحضان.

وقَبَّلَهُ أبوه حمدي عز ، واحتضنه بشدة ، وجلس على طرف فراشه بعــد أن عَرَفَهُ بالدكتور "عادل" والدكتورة "هناء"..... وتحدث عصام عن ظروف إصابته:

ـ يا دكتور منذ الدقائق الأولى من بدء المعركة ، تحملنـــا نحـــن الـــسائقين مدرعات عبئًا أساسيًا في المعركة ، فكنا نحن قبل البداية نقوم بنقل الذخيرة مـــن الخطوط الخلفية للأمام ، حتى نكون على أهبة الاستعداد لتلبية أي مطالب يطلبها الجنود في المعركة، وبعد المعركة بساعات .. كان أغلب الجنود قد عبروا القنـــاة واستردوا الحصون في الضفة الشرقية ، ونفذت معظم الـــذخيرة مـــنهم ، فكـــان علينا أن نوصل الذخيرة لهم بسرعة ، حتى قبـــل عبـــور المـــدرعات الأخـــرى والدبابات والمدفعية الثقيلة ، وعبرت سيارتي المدرعة للمرة الأولى في الـــساعة الرابعة بعد ظهر اليوم الأول العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ، وأوصـــلت الذخيرة سليمة بعون الله ، وكانت السماء ملغمـــة بالطـــائرات ، والأرض مليئـــة بالنيران ، ولكن الحمد لله وصلت الذخيرة بالسلام إليهم ، وكان البعض فعلاً قـــد انتهى من تصيد العدو واستنفذ الذخيرة ، ووزعناها على الأفراد ، وعدنا لنلحـــق بهم ومعنا احتياطي آخر من الذخيرة ، وأثناء عودتي دمرت سيارتي ، فقد جاءت لها طلقة مباشرة بصاروخ أرض أرض ، ودخل في الموتور ونجوت بأعجوبـــة ، وعدت إلى مؤخرة قيادة لواءنا ، ووجدت سيارة أخرى استُشهد صاحبها ، وكان

كل منا صاحب سيارته ، فأخذتها في اليوم الثالث وعبرنا ، وعندما اقتربنـــا مـــن الموقع المقصود شبت النيران من حولنا ، ومع ذلـــك فقـــد أنقـــذ الله المنطقـــة المحيطة بنا من جنود وعساكر ودبابات مصرية من الدمار ، نتيجة انفجار سيارة ذخيرة ، وستر الله ووصلنا لهدفنا سالمين ، وعندما تهيأنـــا للعبـــور المـــضاد ، فوجئنا بأن العدو بدأ يستعمل الغازات والكيماويات الممنوعة ، ليقضى بها علـــى صلابة قواتنا الأصيلة القوية ، التي وقفت بصدورها ضد أي حرب من أي نوع ، وكانت النتيجة هي احتراقي ، كما ترون ، فقد فوجئت بالحرارة تبلغ مـــداها مـــن حولي وجسمي يحترق، فأُسعفت ميدانيًا ، ونُقلت للمستـــشفي الميـــداني والتـــي أحضرتني إلى هنا بعد أيام قليلة، والحمد لله لقد كانت حالتي سيئة جدًا حتى أنني كنت على وشك الموت ، واسألوا شقيقتي هانم!!

فنظر لها الوالد وقال باستغراب شديد وبدهشة بالغة :

ــ هل حقًا يا حبيبتي كنت تعرفين حالة أخوك عصام الخطيرة ولم تبلغينني؟!

ــ يا والدي .. لقد كنت غير متأكدة من أنه أخي أم لا ؟!! ، ولذلك فلم أزعج أحد بشكوكي ، وعندما رجعت من الميدان عدت إليه لأتأكد .. وعندما تأكدت أنه عصام أخي وحبيبي ، أرسلت لك برقية فورًا... هل أخطأت فـــي هـــذا؟! المهـــم أنه.. .. ..

" وبدأت تحكى للجميع قصة شكوكها وكيف وجدت أخيها ، وكيف أنه عنـــدما وجدته في نهاية قافلة مصابين آتيه ذهبت معه إلى عنبـــر الحـــالات الخطيـــرة ، ووقفت معه حتى عندما بدأ يفيق ، وعندئذ استدعوها إلى المستشفي الميـــداني ، ولم تكن عنها أي دليل على أنه شقيقها..." واطمأن الجميع على صحة عصام ، وعادوا جميعًا للفيلا ، وأمضى الدكتور "عادل" وزوجته الليل مـــع حمـــدي عـــز وابنته ، وشعر الدكتور "عادل" أن "هانم" تخفي أسرارًا عظام ، فسألها ، فأخفت ، ثم قالت:

ــ هل تعرف الدكتور "كامل على" ، وهـــو طبيـــب فـــي مستـــشفي قويـــسنا المركزي..

ـ بكل تأكيد إنه من دفعتي الجامعية ، وهو مثال للشخصية الكاملـــة ، كـــان يعمل معي ، ثم انتقل إلى للعمل بقويسنا.. ولكن لماذا السؤال عنه ؟!

ـ فقط للتعارف ، فلقد كان معي في المستـــشفي الميـــداني.. وقـــد وعـــدني بقدومه قريبًا لزيارتنا..

ـ ألف مبروك.. خبر سعيد وربنا يتمم بخير ..

قالها الدكتور بعد تأكده من حسن فهمه لما تعنيه هانم ..

ومرت الأيام العديدة والمتعاقبة ولم تُظْهِر الأيام شيء ، حتى أرســـل الابـــن الأصغر أحمد تلغرافًا ، يخبر والده بأنه بخير وأنه سيحضر فـــي الأيـــام القليلـــة القادمة، وهو في الجيش الثالث الميداني ، ما زال يقاوم العدو ...

وفرح "حمدي عز" و "هانم" وحتى الدكتور "عادل" ، الذي تعـــود الزيـــارة ، وانتظر الوالد الخبر من عند ولده "عمر" وانتظرت "هانم" إعلان الحقيقـــة ،حتـــى استدعاه مأمور مركز الشرطة ...

وعاد "حمدي عز" مفجوعًا حزيناً ، وهو يردد:

ـ حبيبتي .. شقيقك عمر مات.. أستشهد.. عمر يا هانم مات..

ـ البقاء لله يا أبى .. إني كنت أعرف!

قالتها بثبات...

ـ كنت تعرفين!! أهذا معقول ؟؟؟

*** *** *** ***

# الفصل الخامس عشر

ـ من الطارق؟...

ـ عامل التلغراف... لكم برقية هامة وسريعة...

وفتحت "هانم" الباب بسرعة ، ووقعت باستلام البرقية ، وأسرعت إلى والدها في حجرته ، ودخلت بسرعة دون استئذان ، وأعطته البرقية الهامة ، ودهش ودهشت بينما كانت سحابة السعادة ترفرف فوقهما وهم يقرءان:

ـ سعادة الأستاذ / حمدي عز

تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية

يتشرف رئيس مجلس الشعب بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن جميع أعضاء المجلس ، بدعوة سيادتكم وكريمتكم إلى حضور حفل التكريم ، الذي يقيمه المجلس لأبطال القوات المسلحة المصرية ، في مقر مجلس الشعب يوم ١٩٧٤/٢/٢٢ الساعة الحادية عشر ظهراً ، ونأمل عدم التخلف عن الحضور للأهمية.

وشكرًا،،،

وقام الوالد وقَبَّلَ ابنته قُبلة وقُبلة وهو فرحٌ سعيد ، سعيد .. سعيد بوطنه ، وبتقدير الوطن له ولأسرته ، وكانت السعادة لا توصف ، وسأل ابنته:

ـ ومتى ميعاد الحفل؟!...

ـ إنه غدًا يا والدي!!..

وقفز الوالد كطفل صغير من شدة الفرح والسرور ، وقام ليجهز بدلة الحفلات ، التي يرتديها عادة في المناسبات الهامة من الأسموكن الإنجليزي ، وتمنى لو يتمكن من تفصيل بدلة جديدة يحضر بها الاحتفال ..

وقامت ابنته هي الأخرى بتجهيز ثوبها ، وما سترتديه في هذه المناسبة الكبيرة ، وتمنت لو يشاركها الدكتور "كامل" فرحتها هذه.. إنها تشعر أن الأحزان لاحقتها من يوم أن تقابلت مع الدكتور "كامل".. حزنت لوفاة شقيقها .. وحزنت

لإصابة شقيقها الآخر .. ثم تتابع حزنها وألمها ، لأنها لم تر الدكتور منذ مدة طويلة ، منذ أن وعدها بزيارتها وبالتالي خطبتها ، ورغبته في الارتباط بها حتى آخر العمر ، ولم يأت ، حتى لم يتصل للاعتذار ، وانتظرت تجاهد العذاب والعذاب، حتى فرحت اليوم بتقدير الدولة للبطولة والأبطال.

وقام حمدي عز وابنته من النوم مبكرين مقدسين الميعاد ، حتى أن حديثهما لم يستغرق سوى دقائق معدودة .. قبل الدخول للحمام .. ثم أثناء الفطور ، ثم عند ارتداء الملابس التي تليق بهذا الاحتفال الكبير...

وما لبثا أن خرجا من باب المنزل .. وبدأ عم "حمدي عز" في إغلاقه بالمفتاح .. حتى سمعا بوق سيارة تنادى ، وظنا أن القادم لا بد وأن يكون هو أحمد البطل في الجيش الثالث الميداني ، ولكنهما فوجئنا بسيارة الدكتور "عادل" هي التي تقف وتطلق صيحاتها وأصواتها ، وكان معه بداخل السيارة زوجته ، ففرحا كثيرًا لهذه المفاجأة السارة ، وتعانقوا بترحاب وشوق : الزوجة مع هانم والأب حمدي مع الدكتور عادل ، ثم سأله الدكتور "عادل":

ـ إلى أين يا أستاذ حمدي؟!

ـ في الحقيقة لقد وصلتنا الدعوة من رئيس الجمهورية لحضور الاحتفال بتكريم القوات المسلحة بمجلس الشعب ونحن ذاهبون إلى هناك.

وبروح المرح والود والصداقة ، قال الدكتور عادل :

ـ وإنني أيضاً ، مدعوا أنا وزوجتي ، معنا دعوة أيضًا كالتي معك يا أستاذ.. تعال والآنسة "هانم" لنذهب جميعًا..

وركب الأب وابنته السيارة وتوجه الجميع إلى مجلس الشعب بالقاهرة ، وعندما وصلت السيارة ومن بداخلها فرح مسرور بهذا اللقاء وبهذا التكريم للبطولة وللأبطال ، ولكن .. زاد من سرورهم الاستقبال الحافل والكبير الذي استقبله بهم أعضاء مجلس الشعب والعاملين فيه.

ودخل الجميع إلى القاعة الرئيسية ، ثم بعد وقت غير قليل خرجوا إلى الكافيتريا لتناول بعض المشروبات ، حتى يقترب الموعد لأنهم حضروا مبكرين ،

وما لبثوا أن جلسوا ، حتى رأت هانم شاب فارع الطول قمحي الملامح صلب العود ، قد أعطت الشمس شيئًا من حنانها على وجهه وعلى شعره الأسود الفاحم ، وأعطته الملابس العسكرية التي يرتديها جمالاً وعذوبة وقوة...

رأته "هانم" وهو يدخل بخطوات ثابتة فهمست في أذن والدها:

ــ أليس هو هذا يا والدي؟!

فاتجه بصر الأب إلى ناحية ما تشير نحوها أصابع "هانم" الرقيقة ، ولم يصدق عينيه ، والدهشة تعلو وجهه ، وهو يصيح :

ــ أحمد !!!... حبيبي أحمد..

وتعانق الأهل وتصافح الأصدقاء وتبادل الجميع القبلات والفرح والهناء ، وظهرت ووضحت علامات الرضاء والسرور على وجه الجميع .. من حمدي عز وابنته وابنه .. حتى الدكتور "عادل" وزوجته ، وازدادت تلك الفرحة عندما وصلت إلى مبنى مجلس الشعب أفواج الأبطال الجرحى والمصابين ، وعندما رأى الجميع البطل عصام الذي كاد أن يهرب من آلامه وإصاباته عندما هربت هي منه.. وكان أكثر من أخيه أحمد قوة ، ولكن جلده كان أبيض ناصعًا تتخلله عروق الدم الحمراء .. كأثر وكوسام على مر الزمان رمزًا لبطولته وفدائيته.

وتعانق أحمد مع أخيه عصام أكثر من مرة ، وهنأه على الأوسمة التي يحملها نتيجة إصابته في معركة الشرف والفداء ، وبدأ أحمد يحكى قصة الأيام السوداء التي تحملها في الجيش الثالث قرب السويس :

ــ تلك الأيام التي حولها الجندي المصري إلى أيام بيضاء ناصعة في تاريخه.. كان أحمد في سلاح الوقود ، وكان من مهمته أن ينقل الوقود من المخازن الثابتة في الضفة الغربية إلى الشرق ، وتهون الحياة التي كانت في خطر دائم نظر لسهولة اشتعال الوقود فداء للوطن وللنصر من أجل مصر.. وبعد الثغرة ، وخصوصًا في الأيام الأخيرة قبل وقف إطلاق النار ، تعذرت مأموريتنا .. فكنا ننقل الوقود أحيانًا بطائرات الهليوكوبتر .. وظلت الإمدادات

تصل بانتظام للجيش الثالث في الشرق ، والعدو مندهش جدًا ونحـــن واثقـــون.. هذا كل ما عندي الآن.

وساد السكون الجميع عندما سمعوا النداء :

ــ على جميع السادة الضيوف التوجه إلى القاعة ، نظرًا لقرب وصول السيد رئيس الجمهورية...

وكان النداء في جميع السماعات الداخلية المنتشرة في قاعات المجلس وفـــي مختلف أرجائه ، وتوجه الجميع إلى مقاعدهم المخصصة في الصف الثـــاني مـــن القاعة .. ودهشت "هانم" عندما وجدت بجانبها الآنسة "هدية" والبطل "صلاح" من ضمن المدعوين إلى الجلسة التاريخية ، وتعانقت معها وشدت على يد "صلاح" ، ووجد عم "حمدي" ضابط المخابرات الذي كان معه طوال الأيام الحالكة يجلس في الصف الثاني معهم ، فعانقه أيضًا عناقًا حارًا..

وبدأت الاحتفالات بالقرآن ، وبإلقاء الرئيس لكلمته التي أعلن عـــن ســـعادته ببطولة أبناء مصر الأبرار ، ثم تكلم وزير الدولـــة معلنًـــا أســـماء مـــن منحـــوا أوسمة ... وقال بعد بضعة أسماء:

ــ كما تقرر منح البطل رقيب أول "عمر حمدي عز" وسام نجمة سيناء ومـــن الدرجة الأولى نظراً لبطولته الفذة واستبساله الكبير ، وينوب عنه والـــده البطـــل "حمدي عز" في استلامه نظرًا لاستشهاد عمر..

وكانت مفاجأة المفاجآت ، فلم يكن يتوقع أحد منهم أن تكون الدعوة لـــذلك ، ولتكريم شهيدًا ووالده!!

وواصل الوزير استعراض أسماء المكرمين ، وبعد عدة أسماء أعلن :

ــ كما تقرر تقليد الجندي "صلاح علم الدين" وسام نجمة سيناء لبطولته..

كما استلم كذلك صلاح خطيب الممرضة هدية وسام نجمـــة ســـيناء ، كمـــا استلمه "حمدي عز" بالدموع والأفراح.

وكان اجتماعاً عظيمًا .. أخذ فيه الأبطال أوسمة .. تقـــدير لبطـــولتهم فأخـــذ عصام وأحمد أوسمة بدرجات مختلفة..

وواصل المذيع الداخلي :

ــ كما تقرر في نفس الجلسة تكريم الأطباء الذين قاموا بدور فعال في المعركة ، وكذلك الممرضات ، ونالت كل من "هانم" والدكتور "عادل" وسامًا ، وفرحا كثيرًا مثل البقية الباقية من المُكَّرمين ، وكذلك زميلتها "هدية".

وهمست هدية في أذن صلاح:

ــ متى سنعقد القران يا حبيبي؟!

ــ هل تريدين الآن؟

ــ نعم يا حبيبي .. ستكون أسعد لحظات حياتي!!

وفور انتهاء الجلسة التاريخية لمجلس الشعب ، وتكريم الأبطال من أبناء مصر الطيبة المنتصرة ، قام صلاح وهدية بتوجيه الدعوة للجميع لحضور عقد القران في كافيتريا مجلس الشعب !!!...

وتوجهت الأسرة الصغيرة من "حمدي عز" وولديه "عصام" و"أحمد" وابنته "هانم" والدكتور "عادل" وزوجته وضابط المخابرات والعروس والعريس وارتفعت زغاريد الفرح من "هانم" وزوجه الدكتور "عادل".

وفوجئ الجميع عندما انتهى المأذون من إجراءات عقد القران بصوت يقترب مناديًا:

ــ هانم.... هانم... هانم!!!...

ونظر الجميع فإذ بهانم تقوم مسرعة وتقابل الشخص الذي ينادي عليها:

ــ حبيبي الدكتور كامل!!!..

وترتمي في أحضانه ، وسط دهشة الجميع ، وهي تتساءل :

ــ لماذا تأخرت يا حبيبي؟! ..

ــ مهام في الإسماعيلية لم أستطع تأجيلها ...

ثم نظر حوله ، وتساءل :

ــ من هذا؟!

ــ هذا هو شيخ الأزهر يقوم بعقد قران صلاح على هدية !!..

فقال بتحدي :

ــ لو وافقت نكمل الفرح ونعقد القران الآن؟!

ووافقت "هانم" بعد موافقة والدها "حمدي" وشقيقاها ، وذلك بعد أن قدمته "هانم" لهم ، كزميل الكفاح والزميل الذي خفف عنها صدمة استشهاد شقيقها عمر ..

وسرعان ما اكتملت فرحة الجميع بعقد القران الثاني في كافيتريا مجلس الشعب ، والأوسمة ما زالت تتلألأ على صدور الجميع ...

وبعد عقد القران ... تبادل الجميع التهاني الحارة ، بين الأصدقاء والأهل والزملاء ، خصوصًا بين "هانم" و"هدية".

ووقف الجميع كفوج من أفواج البطولة والأبطال في صف واحد .. أحمد على اليمين وضابط المخابرات على اليسار ، وبجانب الضابط وقف عصام ثم الدكتور عادل وزوجته ثم "هانم" فوالدها فزوجها الدكتور كامل فهدية فزوجها صلاح فالبطل أحمد... وقف الجميع لأخذ الصور التذكارية.

وبعد دقيقتين من تهافت المصورين على التقاط الصور التذكارية ، بُهِّتَ الجميع من سقوط عم "حمدي عز" من الصف فجأة .. والتف حوله الجمع بأكمله يطمئنون عليه ، وقام الدكتور عادل بعد الكشف السريع عليه:

ــ لقد انتهى دوره البطولى في الحياة!!

وصاح كل من أحمد وعصام وهانم ، في صوت واحد :

ــ والدي... والدي... أبى... أبى!!!

وقال ضابط المخابرات:

ــ أبدًا لم ينته دوره في الحياة ، بل بطولته مستمرة في بطولتكم جميعًا .. أيها الأبطال أصحاب الشجاعة والبطولة.

*** *** ***

( تمت الرواية )